

بحوث ومقالات

المعجمات العربية المتخصصة

للدكتور إبراهيم مكي

قد

يظن أن المعجمات المتخصصة من صنع التاريخ الحديث والمعاصر

، ولكنها عرفت منذ زمن طويل . لها أصول في التاريخ القديم والمتوسط ، ووصل إلينا منها قدر لا بأس به . ودون أن نعرض لها في اللاتينية أو اليونانية ، نود أن نقف قليلا عندها في العربية فنشير إلى نشأتها ونموها ، وننوه ببعض نماذج منها . ولا شك في أن هذه المعجمات ثمرة من ثمار النهضة العلمية والثقافية ، لا تظهر لأول وهلة ، وإنما هي وليدة جمع وتحصيل لجهود سابقة واستخلاص من مكاسب وثروات محققة ، وتوزيع لحركات فكرية متلاحقة .

وقد بدأت الحركة الفكرية في الإسلام منذ الدعوة المحمدية ، وأخذت تتغذى بقول النبي وفعله ، وقام على أمرها من بعده الصحابة والتابعون ، وتعهدوا شيوخ المسلمين وأئمتهم . ولم يترددوا في أن يستعينوا في ميدان الدرس والبحث بمن انضم إليهم من مفكرين كتابيين وغير كتابيين ، والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . وبلغت هذه الحركة أوجها في القرن الرابع الهجري ،

أو العاشر الميلادي ، ونشأت عنها علوم مختلفة ، بين دينية ولغوية ، طبيعية ورياضية منطقية وفلسفية . وأصبحت دائرة المعارف الإسلامية من أوسع دوائر معارف الفكر البشري ، ربطت التاريخ القديم بالمتوسط ، وامتدت إلى التاريخ الحديث ، وغذته بغذاء له شأنه . أخذت وأعطت ، تأثرت وأثرت .

ولكل علم لغته ومصطلحاته ، يضعها أهله ، ويذيعها الدرس والتأليف . تبدأ قلقة محدودة ، وتخضع لسنة النشوء والارتقاء فيحذف منها ما يحذف ، ويعدل ما يعدل ثم لا تلبث أن تنمو بنمو العلم نفسه ، وأن تنتشر بانتشاره ، وأن تستقر باستقرار العرف والاستعمال . وهنا يعنى الباحثون بجمعها وشرحها في معجمات خاصة لأنها مفاتيح العلم وأدوات التعلم . ويتفننون في وضع هذه المعاجم ، فيقصرونها على علم بعينه ، أو يستوعبون فيها طائفة من العلوم . يرتبونها ترتيبا موضوعيا ، أو يسلكون فيها مسك الترتيب الهجائي على غرار المعجمات اللغوية . وتتفاوت شروحهم للمصطلحات ، فتجىء تارة مختصرة مركزة ،

تكتفى بذكر الدلالة اللغوية للفظ ، وتضيف إليها دلالة الاصطلاحية في دقة واختصار - وتنحو تارة أخرى منحى البسط والتفصيل ، فتبين آراء العلماء والباحثين ، وتشير إلى خلاف المذاهب والمدارس .

ولا تقف المعجمات المتخصصة عند المصطلحات العلمية ، بل تعالج أيضا العلماء أنفسهم . فتحاول حصرهم والتعريف بهم ، وتسجل بذلك تاريخ العلم ، وتعين على فهم قضاياها ، وتمكن من الحكم على رجاله .

* * *

والعربية غنية غناء ملحوظا بمعجماتها المتخصصة ، فكثرت فيها منذ عهد مبكر ، وبدأت بها في العلوم الدينية واللغوية ، ثم طبقت فكرتها على العلوم الأخرى من إنسانية وطبيعية ورياضية ، وكتب التفسير في أساسها تعد ضربا من هذه المعجمات ، وكتب الحديث من صحيح ومسند وشرح لها لا تخرج عن هذا كثيرا . وفي وسع العربية أن تباهى بما وفر لها من معجمات الأعلام ، فلديها منها ثروة لا تكاد نجد لها نظيرا في اللغات الأخرى . وكثيرا ما سميت كتب الطبقات أو التراجم ، وكل قرقة وكل مدرسة وكل علم طبقاته ، مثل طبقات المعتزلة ، وطبقات الشافعية ، وطبقات النحاة وطبقات الأطباء : ولا شك في أن علوم الحديث في عنايتها بتاريخ الرجال والكشف عن مدى نزاهتهم وصدقهم في روايتهم هي التي وجهت نحو هذا اللون من التأليف :

ولم يقف أمر هذه المعجمات عند الأشخاص بل امتد إلى البلدان والأماكن : وهناك باحثون أولعوا بذلك ولوعا كبيرا ، وعلى رأسهم ياقوت الحموي (٥٦٢٤هـ = ١٢٢٨م) صاحب «معجم الأدباء» ، و«معجم البلدان» وهو دون نزاع حجة في هذا الباب ، ومرجع هام يعول عليه : ويعد من أعلام أصحاب الموسوعات والمعاجم في التاريخ القديم والحديث .

وندع جانبا معجمات الأشخاص والأماكن وما أجدرها ببحث خاص : ونقصر حديثنا على معجمات المصطلحات ، والحديث فيها يطول ، وليس في وسعنا أن نستوعبها هنا جميعها ، فهي متعددة ومتنوعة بتنوع العلوم والفنون ، ونكتفى بذكر ثلاثة منها تشير إلى التطور التاريخي في وضع المعجمات العربية المتخصصة ، وهي «مفاتيح العلوم للخوارزمي» ، و«تعريفات الجرجاني» ، و«كشاف اصطلاحات العلوم والفنون للتهانوي» .

والخوارزمي (٥٣٨٧هـ = ٩٩٧م) شيخ من شيوخ القرن الرابع الهجري ، الذي يعد العصر الذهبي للثقافة الإسلامية ، فوقف عليها الخوارزمي في مراحل نضجها ، وألم بفروعها وأصولها ، واتسم بالطابع الموسوعي الذي كان شارة العصر وإن غلبت عليه حرفة الأدب . اتصل بالدولة الساسانية ، وهي مشهورة بخدمة العلم ورعايته ، وكتابه الذي نعرض له إنما صنف باسم واحد من وزرائها . وكان

يجيد العربية والفارسية ، وله فيما يبدو إلمام بالسريانية واليونانية . ويظهر أن بعض فلاسفة هذا العصر وعلمائه كانوا يعنون باللغات الأجنبية ، ويحصلون منها ما يجدون السبيل إلى تحصيله . ويكفى أن نشير إلى الفارابي الفيلسوف ، وهو معاصر للخوارزمي ، وقد توسع رجال التراجم كثيرا فيما ينسبوه إليه من معرفة لغات أجنبية .

والخوارزمي رائد من زواد المعجمات العربية المتخصصة ، أدرك في وضوح الفرق بينها وبين المعجمات اللغوية . ذلك لأنها تعبر عن عرف خاص ، وتشتمل على مصطلحات ومواصفات لا يعرفها إلا أهل العلم أنفسهم . ويلاحظ بحق « أن اللغوى المبرز في الأدب إذا تأمل كتابا من الكتب التي ألقت في أبواب العلم والحكمة ، ولم يكن شدا صدرا من تلك الصناعة ، لم يفهم شيئا منه »^(١) . وهو يشير بهذا إلى ما استقر عليه رأى الفيلولوجيين المعاصرين من أن اللغة العلمية واحدة من اللغات الخاصة ولا حظ أيضا أن اللفظ الواحد قد يأخذ دلالات مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، فالرجعة مثلا عند الفقهاء الرجوع في الطلاق ، وعند متكلمي الشيعة عودة الإمام بعد غيبته أو موته ، وعند الفلكيين سير أحد الكواكب

الخمسة المتحيرة على غير نضد البروج^(٢) . ويقع كتابه في مقالتين ، وقف أولاها على العلوم الشرعية والعربية ، ووقف الثانية على العلوم الأعجمية والدخيلة وتحت كل مقالة عدة أبواب ، وتحت كل باب عدة فصول . فقام الكتاب جميعه على تقسيم موضوعي ، وتبويب دقيق محكم . وقد أعلن المؤلف في مقدمته : أنه ، رغبة في الاختصار والوضوح ، ترك جانبا المصطلحات المشهورة والمتعارف عليها ، كما ترك المصطلحات الغريبة والغامضة التي تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفسير ، وتحاشى التفريع المفرط وإيراد الحجج والشواهد^(٣) . وقد حقق فعلا ما قصد إليه ، وجاء كتابه مرجعا للمتخصصين ، وعونا لطلاب البحث والدراسة . ولذلك سماه « مفاتيح العلوم » لأنه مدخل لها ، ووسيلة للكشف عن بعض الغامض منها^(٤) . ولهذا الكتاب شأن خاص في توضيح تطور المصطلح العلمى العربى ، والإشارة إلى مصادره الأساسية من وضع أو تعريب ، ولعله من أوضح المراجع العربية . بيان الأنخذ عن اليونانية والسريانية . وقد كشف عنه حديثا المستشرق الهولندى « فان فولتن » في أخريات القرن الماضى ، وعول عليه من بعده الباحثون والدارسون .

(١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤ .

(٤) المصدر السابق .

والشريف الجرجاني (٨١٦هـ = ١٤١٣م) من رجال القرن التاسع الهجري ، جاء بعد الخوارزمي بنحو خمسة قرون ، وعاش في عصر غلبت فيه الدراسات النقلية من فقه وتفسير وحديث ، ولم يبق من الدراسات العقلية إلا المنطق وعلم الكلام . تتلمذ لبعض شيوخ عصره ، أمثال قطب الدين الرازي (٨٧٦هـ = ١٣٦٥م) واتصل بتيমور لنگ ، وفي مجلسه ناظر سعد الدين التفتازاني (٨٧٩هـ = ١٣٨٩م) أنجاد العربية والفارسية ، وكتب وألف فيهما ، وتدور مؤلفاته حول الفقه والتفسير والحديث من جانب ، والمنطق والكلام والبلاغة من جانب آخر .

ومن بينها « كتاب التعريفات » ، وهو معجم متخصص صغير ، عني خاصة بالعلوم الدينية والأدبية ، وطغت عليه نزعة لغوية واضحة ، فأدخلت فيه ألفاظ لاتعد من المصطلح في شيء ، وحفظ العلوم الطبيعية والرياضية فيه بخد ضئيل ، فهو صورة صادقة لبيئته وثقافة عصره . سلك فيه مؤلفه مسلكا واضحا في التلخيص والتبسيط ، ولم يعرض للخلافات المذهبية والمدرسية إلا في حدود ضيقة . فجاءت تعريفاته جلية واضحة ، يسهل حفظها والاستشهاد بها . ورتبت مصطلحاته ترتيبا أنجديا ، يسر أمرها على الدارسين والباحثين . وفي هذا ما يفسر سر ذيوعه ، والإقبال عليه ، ولكن « مفاتيح العلوم » دون نزاع أعمق منه درسا ، وأكثر تخصصا .

والتهانوي من رجال القرن الثاني عشر الهجري (١١٥٧هـ = ١٧٤٥م) ، وهو علم من أعلام الفكر الإسلامي في الهند . ويمتاز هذا الفكر بمحاولة دائبة للجمع بين العلوم العقلية والنقلية ، حتى في عضور الانحطاط والظلمة . وقد نشأ التهانوي في بيت علم ، واستطاع أن يلم بأطراف المعرفة لعصره ، فأحاط بالعلوم الشرعية والعربية ، وتمكن من علوم الحكمة النظرية والعملية ، واتسم بطابع موسوعي فسيح يذكّرنا بكبار مفكري الإسلام في العصر الذهبي .

ويبدو طابعه الموسوعي هذا في معجده الكبير الذي سماه « كشف مصطلحات الفنون » وقد قضى في وضعه بضع سنين ، وهو قطعا من أكبر المعجمات العربية المتخصصة ، بدأه بمقدمة طويلة حاول أن يحضر فيها العلوم المختلفة ، بين عربية وغير عربية ، شرعية وغير شرعية ، جزئية وكلية ، حقيقية وغير حقيقية . وهذه المقدمة ضروب من تصنيف العلوم ، أشبه بما لوحظ لدى مفكرين آخرين ، كإحصاء العلوم للفارابي ، وإن كان صنيع التهانوي أعم وأشمل . وعرض لهذه الأقسام قسما قسما ، وعرف بموضوع كل علم ومسائله وأهدافه ، وقد يشير إلى بعض كتبه ورجاله . ومراجعته عربية خالصة ، وفي أغلبها معاصرة أو شبه معاصرة . وفي ضوء هذه المعرفة غذى معجمه ، وقد يتوسع في بعض المواد إلى درجة هي أدخل في باب التأليف الموسوعي منها في باب المعجم العلمي .

ويكنى أن نشير على سبيل المثال إلى مادة « التاريخ » التي وقف عليها عدة صفحات عرض فيها للتواريخ المختلفة : الهجرى ، والرومى ، والقبطى ، والفارسى ، والتركى .

ورتب هذا المعجم ترتيباً أبجدياً ، وقسم إلى أبواب على حسب حروف الهجاء ، وتحت كل باب عدة فصول . ولوحظ في الباب الحرف الأول من الكلمة ، وفي الفصل الحرف الأخير منها ، على عكس ما صنع صاحب « الصحاح » . وهو تبويب معقد بعض الشيء ، لا يجد فيه الباحث طلبته فى يسر ، فينتقل مثلاً من « الأدب » إلى « الموث » ، ثم إلى « الأوج » ، « والتاريخ » وقضى بذلك على كثير من مزايا الترتيب الأبجدي ، ولو وقف عند الأبواب ، ورثب مواد كل باب ترتيباً هجائياً خالصاً .

لكان أولى ، وقد درج المؤلف فى الشرح على أن يبدأ بالدلالة اللغوية ، ثم ينتقل إلى الدلالة الاصطلاحية ، ويتوسع فيها ما استطاع ، ولا يتردد فى أن يبين مختلف المذاهب والآراء ، وأن يشير إلى بعض المراجع . وقد ثبت نصوصاً فارسية للدلالة على معنى خاص . فجاء معجمه إلى حد ما « ثنائى اللغة » . وشاءت وزارة الثقافة أن تخرجه فى ثوب عربى خالص ، وأن تعيد طبعه وفق المنهج العلمى السليم ، لاسيما وقد نفذت طبعة الهند العتيقة

(١٨٦٢) . ويسير هذا التحقيق فى بطن ملحوظ ، بدئ به عام ١٩٦٣ ، ولم يخرج منه فى العشر سنوات التالية إلا ثلاثة أجزاء صغيرة ، وقف آخرها عند « باب السين » « فصل الطاء » .

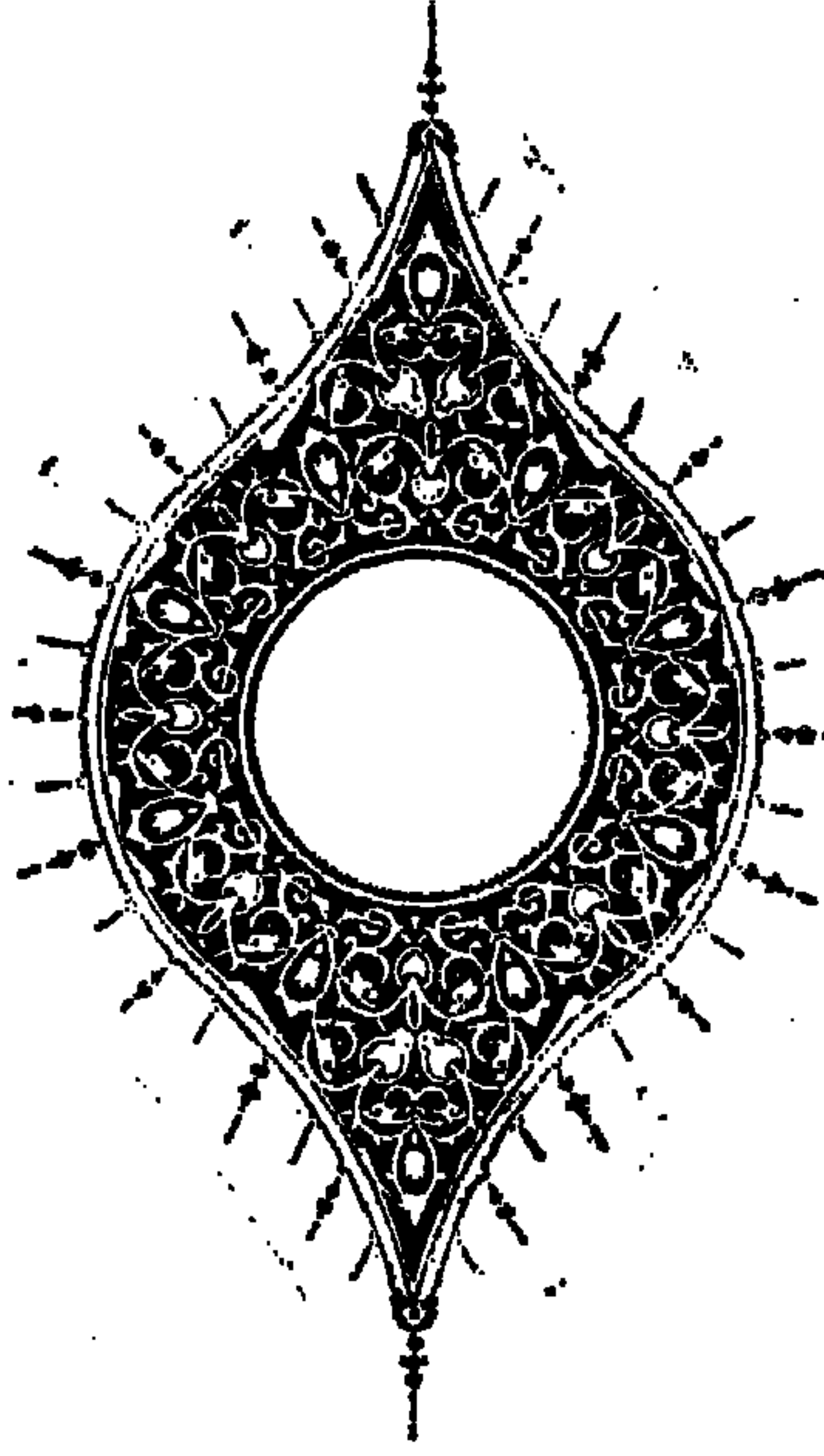
* * *

هذه نماذج ثلاثة من المعجم العربى المتخصص ، وفيها سبق واضح فى الموضوع والترتيب ، فمنها ما اقتصر على المصطلح ، ولم يخلط به شيئاً سواه ، وهذا هو أساس المعجم المتخصص . ومنها ما التزم بالترتيب الأبجدي ، وهذا هو دعامة التأليف المعجمى اليوم ، ومنها ما نحنا نحوا موسوعياً ، فمهد لما تضطلع به دوائر المعارف الحديثة ، وهذه المعجمات الثلاثة متعاقبة زمناً ، ويرتبط لاحقها بسابقتها . وبرغم أنها وليدة بيئات مختلفة فإنها تشهد بوحدة لغة العلم فى العالم الإسلامى جميعه ، وبذيووعها واستقرارها لدى العلماء والباحثين شرقاً وغرباً . ولم يصنع أصحاب المعجمات هذه شيئاً أكثر من أنهم سجلوا عرفاً شائعاً ، ودونوا مصطلحات ومواصفات متوارثة ، وهذه هى القيمة الحقيقية للمعجم العلمى . فلم يخترع أصحابنا شيئاً ، ولم يبتكروا ألفاظاً جديدة ، وفى هذا درس ما أجدرنا أن نفيد منه فيما نعالج من معجمات علمية .

ولاشك في أن العالم العربي ، من الخليج إلى المحيط ، يشهد اليوم نهضة ثقافية ملحوظة ، تهدف إلى إحياء مجد الماضي ومواجهة متطلبات الحاضر : وما يؤسف له أن كثيرين من باحثينا لا يعنون بالمصطلحات القديمة عناية كافية ، وفي وسعهم أن يفيدوا منها في أداء بعض مبتكرات العلم الحديث ، وهذا قصور أو تقصير لا مبرر له . ويلاحظ في ربع القرن الأخير تسابق إلى تأليف المعجمات المتخصصة ، ونحن فعلا في حاجة إليها ،

ولكنها ليست مجرد ترجمة ووضع مقابلات عربية لألفاظ أجنبية ، بل هي أساسا تسجيل لعرف شاع واستقر ، أما أن تتعدد هذه المقابلات وتتنوع بتنوع المؤلفين ، فهذه بلبلة ينبغي أن نحذرها ، وقيمة المصطلح في أنه جزء من لغة تعارف عليها المشتغلون بعلم معين واطمأنوا إليها . ونريد للعلم العربي اليوم لغة موحدة في المشرق والمغرب ، كما كان شأنه بالأمس القريب والبعيد .

إبراهيم مذكور
رئيس المجمع



الآيات التسع البينات

للكفؤر الشفخ عبد الرحمن سلاج

قد

أكرم الله سبحانه وتعالى
رسوله موسى عليه وعلى
نبينا أفضل الصلاة
والتسليم - بآيات بينات ، ومعجزات باهرات ،
كل معجزة منها آية بينة واضحة ، ودليل
قوى قاطع ، يشهد بصدقه ، ويثبت دعواه ،
أنه رسول من الله .

قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على
غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال : ألقها
يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسعى .
قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى .
واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من
غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا
الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى .
(١٧ - ٢٤ طه)

(٣ ، ٤) « ومنها آيتا السنين أى سنى القحط

ونقص من الثمرات » كما قال تعالى : « ولقد
أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات
لعلهم يذكرون » . (١٣٠ الأعراف) .

(٥ - ٩) ومنها الآيات الخمس التي

قال الله فيها : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات
فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » (١٣٣
الأعراف) .

هذه الأنواع الخمسة من العذاب قد
أنزلها الله على فرعون وقومه ، ولم يصبهم بها
دفعة واحدة ، بل أرسلها عليهم متفرقة ،
وكانوا كلما أصابهم نوع منها ضجوا

وإن ما أكرمه الله به من الآيات ،
وما منحه من المعجزات . ليس في مقدور
أحد من البشر ، ولا في مقدور الناس جميعا
ولو تعاونوا عليه ، فإنه فعل الله وحده ،
يصدق به رسوله فيما يدعيه ، وهو بمنزلة
قول الله تعالى : صدق عبدي في كل
ما يبلغ عني .

إن الآيات البينات ، والمعجزات الباهرات
التي أكرم الله بها رسوله موسى عليه
السلام كثيرة .

(١ ، ٢) فمنها الآيتان اللتان أمره الله

تعالى أن يندب بهما أول الأمر إلى فرعون ،
ليثبت له بهما صدقه في دعواه أنه رسول الله
إليه ، وهما : « العصا واليد » ، كما قال
سبحانه وتعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى

واستغاثوا وتضرعوا وطلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يسأل ربه ليرفع عنهم ذلك العذاب ، وكانوا يعطونه العهد والميثاق أن يؤمنوا به إذا رفع عنهم ما نزل بهم ، لكنهم ما كانوا يوفون بالعهد أو يرعون الميثاق ، بل كانوا سراعا إلى نقض ذلك والتنكر له . وذلك كما قال الله تعالى : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالقوه إذا هم ينكثون » . (١٣٤ ، ١٣٥ الأعراف)

(١١ ، ١٢) ومنها معجزة فلق البحر فرقتين ومرو موسى عليه السلام بينى إسرائيل بينهما على أرض يابسة حتى وصلوا شاطئ البر الآخر سالمين ، ثم غرق فرعون ومن كان معه من كبار جيشه والملا من قومه ، وهم الذين كانوا يرخصون خلف بنى إسرائيل ليقتلوهم ويقضوا عليهم ، فلما تبعوهم في ذلك الطريق ، ولمكنهم ما كادوا يتوسطونه حتى انطبق عليهم البحر من شقيه فلم ينج منهم أحد .

وكانت حادثة انفلاق البحر فلقتين كالطودين العظيمين وحادثة انضمام الفلقتين إحداهما إلى الأخرى وعودة البحر إلى ما كان عليه — كلتاها معجزة لموسى عليه الصلاة

والسلام : أمره الله سبحانه وتعالى في الأولى بأن يضرب البحر بعصاه فضربه ضربة انفلاق بها فرقتين ، وكان بينهما الطريق اليبس الذى نجي الله به بنى إسرائيل من فرعون وبطشه . ثم كانت المعجزة الثانية بانضمام الفرتين وعودة الماء إلى حالته الأولى لإغراق فرعون ومن كان معه من جنده وقومه .

(١٢) ومنها معجزة نثق الجبل فوق بنى

إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وتهديدهم بإسقاط الجبل عليهم لتثاقلهم في امتثال أوامر الله تعالى ، وتراخيهم في تنفيذ الأحكام التى حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى ، كما قال سبحانه :

« ولما نثقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » . (١٧١ الأعراف) .

(١٣) ومن المعجزات التى أكرم الله

بها سيدنا موسى منحة له ولبنى إسرائيل :

معجزة تظليل الغمام عليهم وهم في التيه ، فكان السحاب يسير معهم فوقهم يمنع عنهم لفق الشمس ، ويقمهم شدة حرها .

(١٤) ومنها معجزة المن الذى كان

يرسله الله عليهم كل صباح من الفجر إلى طلوع الشمس ، وهو مادة بيضاء حلوة كانوا يتغذون بها أجود غذاء ، وكانت تمنعهم عن الخبز المعتاد ، وكانوا أيضا يصنعون منها نوعاً من الخبز .

(١٥) وكذلك معجزة السلوى ، وهو طائر السمانى ^(١) المعروف أو نوع قريب منه ، كان يرسله الله عليهم آخر النهار من كل يوم ، فكان لهم من هذا وذاك أطيب غذاء يتجدد لهم كل يوم : وفى ذلك يقول الله تعالى : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » (٥٧ البقرة) .

(١٦) ومن المعجزات التى أكرم الله سبحانه وتعالى بها سيدنا موسى وأمتن بها على بنى إسرائيل معجزة الحجر وتفجير الماء منه ، فإنهم لما فقدوا الماء وهم فى التيه واشتد بهم العطش فى الصحراء الحارقة استغاثوا بموسى عليه السلام ، فسأل ربه أن يسقيهم : فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب الحجر بعصاه فضربه ، فتفجر الماء منه عيوناً غزيرة اثنتى عشرة عيناً للأسباط الاثنى عشر ، فكان فى ذلك ريمهم وسقى دوابهم وكفايتهم فى وجوه حاجاتهم إلى الماء : وذلك قوله تعالى :

« وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم » (٦٠ البقرة)

هذه ست عشرة معجزة من المعجزات التى أكرم الله بها رسوله موسى عليه السلام ؛ وهى كثيرة لا تقف عند هذه الست عشرة :

(١) بتخفيف الميم بعد السين المضمومة المشددة .

وما دام الأمر كذلك :

١- فكيف يفهم قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » (١٠١ الإسراء)

٢- وما هى على التعيين هذه الآيات التسع من بين الآيات الكثيرة التى أشرنا إليها ؟

٣- وهل كانت هذه الآيات التسع موجهة إلى قوم معينين غير من وجهت إليهم الآيات الأخرى ؟

٤- وإذا كان الجواب على هذا بالإيجاب فكيف يستقيم ذلك مع قوله تعالى ، فى الإخبار عن فرعون وما كان منه : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » ؟ (٥٦ طه) :

والجواب عن هذه الأسئلة الأربعة أن الآيات الكثيرة التى أكرم الله بها رسوله موسى عليه السلام وأيد بها رسالته - منها تسع آيات هى التى قصد بها فرعون وقومه كما تشير إلى ذلك آية سورة الإسراء : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل

بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مسحوراً » ، فإن ما أخبرت به به هذه الآية من رد فرعون على موسى عليه الصلاة والسلام ذلك الرد الذى هو غاية فى العناد والتكذيب والسفاهة يدل على أن الآيات التسع التى أوتيتها موسى عليه السلام قد كانت موجهة إلى فرعون وقومه :

وهذا المعنى يفيد بصراحة ووضوح قوله تعالى : « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانّ وليّ مديرا ولم يعقب : يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون . إلا من ظلم ثم بدلّ حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم . وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوما فاسقين » (٩-١٢ النمل)

الآيات التسع البيّنات

وفي سبيل تعيين هذه الآيات التسع نورد مقالته «النسفي» في التفسير متابعا فيه الزمخشري صاحب الكشاف :

قال رحمه الله - في تفسير قوله تعالى : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » مانصه : « ولقد أريناه » أي فرعون : « آياتنا كلها » وهي تسع آيات : العصا ، واليد ، وقلق البحر ، والحجر ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، ونتق الجبل .

وفي تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات » :

قال النسفي - تبعا للزمخشري أيضا مانصه :

« ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات » ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذي نتقه على بني إسرائيل .

ثم قال : « وعن الحسن » الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور » . اهـ

وهكذا يعتمد كل من الزمخشري والنسفي في تفسير آية « طه » : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى » على ما نسب إلى ابن عباس من أن آيات فلق البحر ، وتفجير الماء من الحجر ، ونتق الجبل هي من الآيات التسع التي ووجه بها فرعون وقومه .

كما أنهما أوردتا في تفسير آية الإسراء ذلك الذي نسب إلى « ابن عباس » وقدماه على غيره من الأقوال :

وهذا أمر عجيب ، وشيء لا يطمأن إليه ، ولا ينبغي أن يعتمد عليه في تفسير الآيات التسع وتعيينها . ولا يكفي لقبول ذلك أن يكون منسوبا إلى ابن عباس ، فكم كذب الناس على ابن عباس رضي الله عنهما ، وكم نسبوا إليه من الأقوال ما هو منه براء .

على أنه لو صحت نسبة ذلك القول إليه فهو مجتهد غير معصوم الرأي كغيره من المجتهدين .

إنه عجيب حقا أن تعد معجزة فلق البحر من المعجزات التي ووجه بها فرعون ليرتدع عن عناده وضلاله ، ويكف عن كفره وفجوره ، كما هو الشأن في المعجزات التي يراد بها الإنذار والتهديد .

إن معجزة خلق البحر قد أرادها الله تعالى لتكون نهاية لطغيان فرعون ، وإهلاكاً له ، وقضاء عليه وعلى الملائ من قومه وإذا لا ينبغي أن تعد من المعجزات التي وجهت إليه لهدايته وإرشاده كمن يعدل عن غيه ، ويكف عن فجوره وبغيه ، وإنما هي الحادثة الأكبر الذي كان به هلاكه ونهاية أمره ، وهلاك المماليك له من قومه .

أما المعجزتان الأخريان - وهما معجزة الحجر ومعجزة نثق الجبل - فقد كانتا مع بني إسرائيل بعد خروجهم من «مصر» ونجاتهم من فرعون الذي أهلكه الله .

كانت معجزة الحجر منحة لهم ، ونعمة عظيمة امتن الله بها عليهم لما عطشوا واشتد حاجتهم إلى الماء ، ولجأوا إلى موسى عليه السلام أن يستسقى لهم ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يضرب بعصاه الحجر ، فلما ضربه موسى بعصاه انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط الاثني عشر كما قدمنا .

وكذلك معجزة نثق الجبل كانت خاصة ببني إسرائيل لكنها كانت منحة لهم وإنذاراً شديداً وتهديداً بإسقاط الجبل عليهم وإهلاكهم ، لما تراخوا وتثاقلوا في القيام بأمر الله وتنفيذ أحكام التوراة التي حملها إليهم رسولهم من عند الله تعالى ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

ومن ذلك يعلم أن ما روى عن الحسن البصري أصبح وأثبت ما نسب إلى ابن عباس ، وأن الآيات التسع التي حدثت عنها آية سورة «الإسراء» وآية سورة «النمل» ليس منها معجزات البحر والحجر ونثق الجبل .

هذا - والذي حققه العلامة «الآلوسي» صاحب «روح المعاني» - في تفسيره آية «الإسراء» : «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» - أنه قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك عدة روايات وأن أصبح ما روى عنه هو أن الآيات التسع هي : «العصا واليد والسنون ونقص الثمرات والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم» . اهـ

وهي التي نسبت في بعض الروايات إلى «الحسن» ، كما قدمنا . ثم يقول الشيخ آلوسي : إن نسبة ذلك إلى «الحسن» هي على خلاف ما وجدناه في الكتب التي يعول عليها في أمثال ذلك : اهـ (روح المعاني ج ١ ص ١٦٩ المطبعة المنيرية) ويخلص من ذلك أن الآيات التسع هي العصا ، واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات بمختلف الآفات ، والظوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

فالعصا واليد لا يحتاج فيهما بعد ما تقدم إلى زيادة بيان .

وأما السنون فهي مدة القحط والجذب ، وكانت سبع سنوات لم ينبت لهم فيها نبات ولا زرع بسبب احتباس المطر .

وأما نقص الثمرات فهو بوقوع التلف فيها بما سلط عليها من مختلف الآفات . وروى عن « ابن عباس » رضى الله عنهما أن القحط أصيب به أهل البادية وأصحاب الماشية ، فأما نقص الثمرات فقد أصيب به أهل الحضر .

والمراد بالطوفان المطر الشديد الذى غمر حروثهم ووزروعهم ، وقد دام عليهم ثمانية أيام فى ظلمة لم يروا معها شمساً ولا قمراً ولم يستطيعوا أن يخرجوا فيها من بيوتهم . وقيل إن هذا الطوفان هو ماء المطر الغزير الذى تسرب إلى بيوت القبط فغمر كل ما فيها من متاع وأثاث . وبلغ ارتفاعه قمة الرجل وهو واقف إلى ترقوته ، فإذا قعد غرق .

ومع أن بيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط كانت متجاورة متشابكة لم يدخل شيء من ذلك المطر بيتاً من بيوت بنى إسرائيل . أما الجراد فكان كثيراً شديداً الحملات عليهم ، قضى على الزروع والثمار وعلى كل شيء ، حتى أكل ثيابهم وسقوف بيوتهم وأبوابها ، ولم يدخل شيء منه فى بيوت بنى إسرائيل .

وأما القمل - وهو القراد فكان يسبح فى ثيابهم وأجسادهم وفراشهم ومطاعمهم ،

فكانوا لذلك يلاقون منه أشد الغت والذى فى صحوهم ورقادهم وسائر أحوالهم . أما بنو إسرائيل فقد كانوا فى أمن وسلام من ذلك كله .

ولقد كانت الضفادع كبيرة وأصغرها تتلىء بها بيوت القبط . وكان تأذيتهم بها بالغايته ، حتى إنها كانت تقفز فى قدورهم وهى تغلى ، بل كانت تقفز فى وجه أحداهم إذا كان يتكلم أو كان يأكل تحاول أن تدخل فى فمه . ولم يكن شيء من ذلك فى أى بيت من بيوت بنى إسرائيل .

أما الدم فقد حول الله سبحانه وتعالى مياه الأقباط دماً لا يجرز أحدهم شيئاً من الماء إلا وجده دماً ، ولا يشقى من معين أو مسيل ماء صاف إلا وجد ماء يستقيه دماً . ولقد كان يجمع بين الإسرائيلى والقبطى على إنشاء واحد فيكون مايلى الإسرائيلى ماء صافياً على حين يكون مايلى القبطى دماً خالصاً .

وقد نصت على هذه الأنواع من العقوبات التى عوقب بها فرعون وقومه تلك الآيات القرآنية التى عينت بالتفصيل ما أيد الله به موسى عليه السلام من المعجزات التسع : يقول الله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » . ويقول سبحانه وتعالى : « وقالوا مهجناً تأتينا به من آية لتسحرنا بها فأنحن لك عمومنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد

والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات
فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين .

فإذا ضمت هذه الآيات السبع إلى الآيتين
الأصليتين اللتين حدث عنهما القرآن
في عدة سور - وهما « العصا واليد » -
كان المجموع تسع آيات هي التي يشير إليها
قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع
آيات بينات » وقوله سبحانه في سورة النمل :
« وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير
سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه » .
وهي الآيات التي ووجه بها فرعون وقومه ،
كما صرحت بذلك هذه الآية القرآنية من
سورة النمل .

وقد رأى فرعون هذه الآيات التسع
كلها ولكنه كذب بها كلها وأبى أن يؤمن
ونخضع للحق ، كما قال تعالى : « ولقد
أرينا آياتنا كلها فكذب وأبى » ، وكما
قال سبحانه : « كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم
أخذ عزيز مقتدر » : وينبغي أن يعلم أنه
إذا كانت هذه الآيات التسع هي التي
ووجه بها فرعون وقومه كما أسلفنا فإن آية
« العصا » من بينها قد كانت لها آثارها
العظيمة مع بني إسرائيل أيضاً ، فهي التي
ضرب بها البحر فانفلق ، وكان في ذلك
نجاتهم من فرعون وقومه الذين أهلكهم الله
الله بالغرق في ذلك البحر نفسه .

وهذه العصا هي التي ضرب بها الحجر
لما عطش بنو إسرائيل وطلبوا الماء فتفجرت

منه ينابيع وعيون بعدد الأسباط الاثني عشر .
فآثار معجزة العصا كانت عامة فيهم وفي
فرعون وقومه .

أما غير هذه الآيات التسع من المعجزات
الأخرى فقد كان المقصود بها بني إسرائيل
وخدمهم .

هذا وقد قال بعض العلماء : إن الآيات
التسع التي قال الله سبحانه وتعالى في شأنها :
« ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » إنما
هي آيات الأحكام الشرعية الأساسية التي
وردت في التوراة ، وفي أمهات الكتب
السمائية :

تأمر بعبادة الله تعالى وحده ، عبادة خالصة
من شوائب الشرك والشك ومن النفاق والرياء .
وتأمر كذلك ببر الوالدين برا صادقا
خالصا من شوائب التأفف والضجر ، وذلك
بإكرامهما وإحسان خدمتهما ، والشفقة
بهما ، والعطف عليهما .

ثم هي التي تأمر بالاعتدال في معاملة
الإنسان لأخيه الإنسان ، بأن يرعى حقه ،
ويؤتي له بعهده ، ويؤدي إليه أمانته ، ثم
لا يتكبر عليه ، ولا يتجبر ، ولا يتفاخر
ولا يتعالى ، ولا يعتدي على أحد في نفس أو عرض
أو مال .

وهذا كما فصلته آيات من سورة « الأنعام »
جاءت بمثل ما ورد في التوراة وغيرها من
الكتب السماوية المقدسة :

قال تعالى : « قل تعالوا أتلى ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (١٥١ - ١٥٣ الانعام) .

ومثل هذا قد جاء مفصلا في سورة الإسراء في قوله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها

فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السميع والبصير والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (٢٣ - ٢٧ الإسراء) .

قال أولئك العلماء : إن الموافقات التي نجدها بين ما ورد في القرآن في هاتين السورتين : « الأنعام والإسراء » وماورود في التوراة متعلقا بالأحكام الشرعية وأصول الأخلاق الدينية قد تساعد على الحكم بأن المراد بالآيات في قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » إنما هي آيات الأحكام ، وليست الآيات الكونية التي هي المعجزات وقوارع العقوبات .

وقالوا أيضا : إنه يؤيد هذا الحكم ماورد من الأخبار الصحيحة التي تصرح بهذا المراد فقد روى الإمام أحمد والطبراني والبيهقي والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح ، وكذلك الحاكم وقال : صحيح لانعرف له علة ، كما رواه خلق كثير عن صفوان بن عسال (١) أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله (يريدان النبي محمدا صلى الله عليه وسلم) - فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » .

قال أولئك العلماء : إن الظاهر أن هذين اليهوديين كانا يقصدان السؤال عن الآيات التسع : أى شيء هي ؟ وهل يقول فيها هذا النبي بنحو ما هو مسطور في التوراة فيكون ذلك دليلا على صدقه ؟

فلما وجدنا أنه قد انطبق كلامه صلى الله عليه وسلم في ذلك على ما ورد في التوراة سرا بذلك وفرحا وقاما يقبلان يديه وقدميه . فإنه عليه الصلاة والسلام قد أجابهما بقوله : « لا تشرکوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا بغيري إلى سلطان ليقتله ، ولا تقلدوا محصنة ،

ولا تفروا من الزحف ، وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا في السبت ، فقبلا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبي الخير » .

قالوا : فهذه تسع آيات من آيات الأحكام الشرعية ، والوصايا الخلقية ، وأما العاشرة فهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة باليهود ألا يعتدوا في السبت .

وبهذا يتبين أن الآيات التسع التي أوتيتها سيدنا موسى عليه السلام والتي ورد ذكرها في سورة الإسراء هي آيات الأحكام الشرعية كما وردت بهذا المعنى في التوراة ، وكما نبه إلى ذلك بجوابه السديد على سؤال اليهوديين نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام .

وخلاصة القول أننا في هذا الموضوع أمام ثلاثة أمور ، كل منها له شأنه وقدره العظيم ، وإنما من أجل ذلك تستوجب أن نقف عندها وقفة تفهم وتدبر وقوة انتباه ، لنصل فيها إلى حكم فصل تطمئن إليه النفس وتقره مبادئ الدين .

« الأمر الأول » قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » مع ما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين اللذين قيل إنه عليه الصلاة والسلام قد علم من حالهما أنهما يسألان عن الآيات

(١) صفوان بن عسال هو أحد الحجابة الأجلاء غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة غزوة ، وله رضى الله عنه عشرون حديثا .

التسع التي هي آيات أحكام ، فإن ذلك الجواب يدل بظاهرة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أن الآيات التسع في قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » هي آيات أحكام ، وليست هي الآيات الكونية .

« الأمر الثاني » قوله سبحانه وتعالى : « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ، وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون . إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم . وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين » (٩ - ١٢ النمل)

وهو واضح الدلالة على أن الآيات التسع التي أوتينا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام هي آيات كونية ومعجزات قاهرة ، وعقوبات قد قصد بها فرعون وقومه الكفار الفجرة .

« الأمر الثالث » ما روى عن الخبر ابن عباس رضي الله عنهما وهو أصح ما روى عنه في هذا الموضوع كما قدمنا - أنه فسر التسع الآيات بينات في قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » بأنها هي العصا ، واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وهو تفسير منطبق على ما أفادته آيات سورة النمل : من أن الآيات

التسع هي آيات كونية ، ومعجزات من قبيل العصا واليد ، وليست آيات أحكام .

وعلى هذا يقال : كيف يكون التوفيق بين الحكم بأن الآيات التسع بينات هي آيات أحكام شرعية ، كما يستفاد من ظاهر خبر اليهوديين وما أجاب به على سؤالهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين الحكم بأن تلك الآيات هي آيات كونية كما أشارت إلى ذلك سورة النمل ، وفصلته سورة الأعراف .

والجواب أن كلمة « الآيات التسع بينات » لاشك أنها تطلق على تلك الآيات الكونية والمعجزات الباهرة القاهرة التي أيد الله بها رسوله موسى عليه السلام وكان فيها قوارع العقوبات لفرعون وقومه جزاء عتوهم وكفرهم ، كما أشير إلى ذلك إجمالاً في قوله تعالى : « في تسع آيات إلى فرعون وقومه » ، وفصل تفصيلاً تاماً بينا في سورة الأعراف ، كما قدمنا . وهذه الآيات التسع الكونية هي التي فسر بها ابن عباس رضي الله عنهما كلمة : « تسع آيات بينات » في قوله تعالى في سورة الإسراء : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » كما علمنا .

لكن ماذا يصنع في خبر اليهوديين وما أجابهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألاه عن هذه الآية من سورة الإسراء ، إذ ذكر لهما أشياء هي آيات أحكام وليست من الآيات الكونية التي أشرنا إليها آنفاً ؟

« والجواب » عن ذلك من وجهين :

الأول : أنه يمكن أن يكون المراد من الآيات التسع البينات الواردة في سورة الإسراء آيات للأحكام على نحو ما ورد في التوراة ، وكما هو ظاهر قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه تفسير لها في جوابه على سؤال اليهوديين ، فقد أوردتها عليه والسلام تسعة أشياء أحكاما عامة ثم ختمها بحكم خاص باليهود : ألا يعتدوا في السبت .

وهذه غير آيات أخرى هي من الآيات الكونية والمعجزات القاهرة قد أشارت إليها سورة النمل ، وأنها تسع آيات أيضا : حتى إنه إذا سأل سائل عن تسع آيات بينات أوتيها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فأجيب بأنها تلك الآيات الكونية فإن ذلك يكون جوابا صحيحا وسديدا ، لأن للرسول موسى عليه الصلاة والسلام تسع آيات بينات هي آيات كونية ومعجزات باهرة ، وعقوبات القاهرة قد أخذ الله سبحانه وتعالى بها فرعون وقومه .

الوجه الثاني أنه لا يجب أن نحكم بأن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أجاب به اليهوديين كان شرحا وتفسيرا لآية : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » وأنه يرى أن « الآيات التسع البينات » في الآية الكريمة مراد بها آيات الأحكام ، وإنما كان كلامه صلى الله عليه وسلم في ذلك كلاما حكما أراد به أن يحقق رغبتهما في الوقوف على ما عنده

من العلم بالآيات البينات التي أراد الله أن يؤيد بها رسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، وهي آيات الأحكام والأخلاق التي يعهدون بها مسطورة في التوراة ، ليتخذوا مما يقوله فيها دليلا على صدقه إذا جاء موافقا لما في التوراة ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم يكون قد أدرك منهما هذه الرغبة ، أو لعله علم ذلك مما أوحاه الله إليه ، وعلى هذا يكون جوابه لليهوديين بذكر آيات من آيات الأحكام إنما كان لغرض خاص هو إفادتهما بالآيات التسع التي يعرفانها من التوراة ، ويريدان معرفة ما يقوله فيها : وليس لبيان الآيات التسع البينات التي قال الله في شأنها : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ، فإن هذه هي الآيات الكونية التي نهيت إليها آية النمل « فصلتها آيات الأعراف :

ويحتمل أيضا أن سؤال اليهوديين إنما كان عن الآيات التسع التي هي الآيات الكونية : لكن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يصرفهما بأسلوب حكيم إلى ما هو أنفع لهما وأجدي عليهما ، وأولى أن يشتد فيه حرصهما واهتمامهما بالبحث عنه ، والوقوف عليه ، وذلك هو آيات الأحكام الدينية ، التي في الاستمسك بها وإحسان العمل على وفقها سعادة الدنيا والدين .

وأما ما كان فائس هناك دليل يفيد العلم والقطع بأن كلمة « تسع آيات بينات » في قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » مراد بها شيء آخر غير تلك

الآيات الكونية والمعجزات الباهرات، وقوارع العقوبات التي أنزلها الله على فرعون وقومه الفجرة الكافرين، وكان ذلك تأييداً من الله تعالى لرسوله موسى عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والتسليم.

كلمة الختام

قد تم القول في الحملة الأولى من الآية الكريمة - وهي قوله تعالى: « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » حسباً من الله سبحانه وتعالى به من التوفيق والتيسير ، وعلى قدر ما منح من العلم والفهم .

ونرى هنا - إتماماً للفائدة - أنه يحسن أن نفسر الحملة الثانية من الآية (الكريمة) باختصار ، وهي قوله تعالى : « فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم » ، فإنه قد يحتاج فيها إلى بيان المسائل التالية :

١ - المسألة الأولى: من هو ذلك الشخص المأمور بالسؤال ؟

٢ - المسألة الثانية: من هو المطلوب سؤاله ؟

٣ - المسألة الثالثة: ما هو ذلك الشيء المطلوب بالسؤال ؟

٤ - المسألة الرابعة: كيف عطف هذه الحملة الثانية بالفاء - وهي جملة طلبية متضمنة حضور المخاطب المأمور الذي معه الحديث - على الحملة الأولى الخبرية المقتضية غيبة المحدث عنه ؟

٥ - المسألة الخامسة: بم يتعاق الظرف في قوله سبحانه « إذ جاءهم » ؟

وفي الجواب عن المسائل الثلاث الأولى قد اختلفت كلمة المفسرين .

ولهم في ذلك رأيان :

الأول : أن المأمور بسؤال بني إسرائيل هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . أمره الله سبحانه وتعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عهده عليه الصلاة والسلام - أو الذين آمنوا منهم كمعبد الله بن سلام - سؤال تقرير ، يقررون في جوابه حقيقة ما يعرفونه في كتبهم عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وما جرى له مع فرعون وقومه ، حينما جاءهم بتلك الآيات البينات ، وما رد به عليه فرعون من قوله : « إني لأظنك يا موسى مسحوراً . » وتقدير الكلام على هذا الرأي هكذا : فاسأل يا محمد بني إسرائيل عنه ، أي عن موسى ، وما كان منه مع آبائهم من بني إسرائيل حين جاءهم وما جرى بينه وبين فرعون وقومه ودعاهم إلى الإيمان به والتصديق برسالته .

الرأي الثاني : أن المأمور بالسؤال هو سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، أمره الله تعالى أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في مصر يسعون في معاشهم ، ويعملون تحت سلطان فرعون وفي دولته :

أمره الله سبحانه وتعالى أن يسألهم من فرعون ، أي يطلبهم منه ، فالسؤال هنا

بمعنى الطلب . ومعنى هذا أن يطلب من فرعون أن يخلي سبيلهم ولا يحول بينهم وبين الخروج مع نبيهم موسى ليسير بهم إلى حيث يريد من أرض الله كما أمره الله .

وذلك كما في قوله تعالى : « وقال موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيقى على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل » : (١٠٤ ، ١٠٥ الأعراف)

وكذلك قوله تعالى : « فأتيا فرعون فقلولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » : (١٦٠ ، ١٧ الشعراء)

وقوله عز وجل : « فأتياه فقلولا : إنا رسول ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم » : (٤٧ طه)

ولقد كان اهتمام موسى عليه الصلاة والسلام بخروج بنى إسرائيل من مصر عظيما جدا ، لأنه كان يريد أن يبعدهم من مواطن الكفر والشرك والنجور ، ويخلصهم من العذاب الذى كان فرعون وقومه ينزلونه بهم ، وكذلك ما عسى أن ينزل بتلك المواطن من عذاب الله وسخطه .

وقيل : إن السؤال فى قوله تعالى : « فاسأل بنى إسرائيل » مستعمل فى معناه الظاهر ، وهو سؤال الاستفهام والاستخبار . فالرسول موسى عليه السلام قد أمره الله تعالى أن

يسأل بنى إسرائيل عن حالهم ومبلغ تدينهم وإيمانهم وقوة استمساكهم برسالته ، وهل هم مستمرون على متابعتة ، مصمموا العزم على تأييده ومناصرته والكفاح معه ؟

هذا الوجه قد جوز لإرادته بعض العلماء . ولكننا نرى أنه لا يتم عليه المعنى باستقامة فى بقية الآية ، فإنه لا يظهر عليه سر غضب فرعون على موسى عليه السلام ورده عليه ذلك الرد السفيف ، وقوله له : « إني لأظنك يا موسى مسحورا » ، لكن هذا الرد يظهر جيدا ترتيبه بالفاء على ما قبله فيما وردت به الآية الكريمة إذا حمل السؤال فى قوله تعالى : « فاسأل بنى إسرائيل » على المعنى الأول الذى هو طلبهم من فرعون ، وأمر فرعون أن يخلي سبيلهم لينذهبوا مع نبيهم كما أوضحنا ذلك آنفا .

أما الجواب عن المسألة الرابعة فهو أن الفاء على رأى الأول وهو أن المأمور بالسؤال محمد صلى الله عليه وسلم — هى فاء الفصيحة . والأمر فيها ظاهر .

وأما على رأى الثانى — وهو أن المأمور بالسؤال سيدنا موسى عليه السلام — فهى للعطف بتقدير فعل ماض من القول معطوف على « آتينا » تصوير به الجملة المعطوفة جملة خبرية معطوفة على مثلها ، والتقدير : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فقلنا له : أسأل بنى إسرائيل .

وأما الجواب عن المسألة الخامسة فهو أن
الظرف « إذ » على الرأى الأول متعلق
بمقدر من المقدرات بعد قوله سبحانه وتعالى :
« فاسأل بنى إسرائيل » على ما أوضحناه .

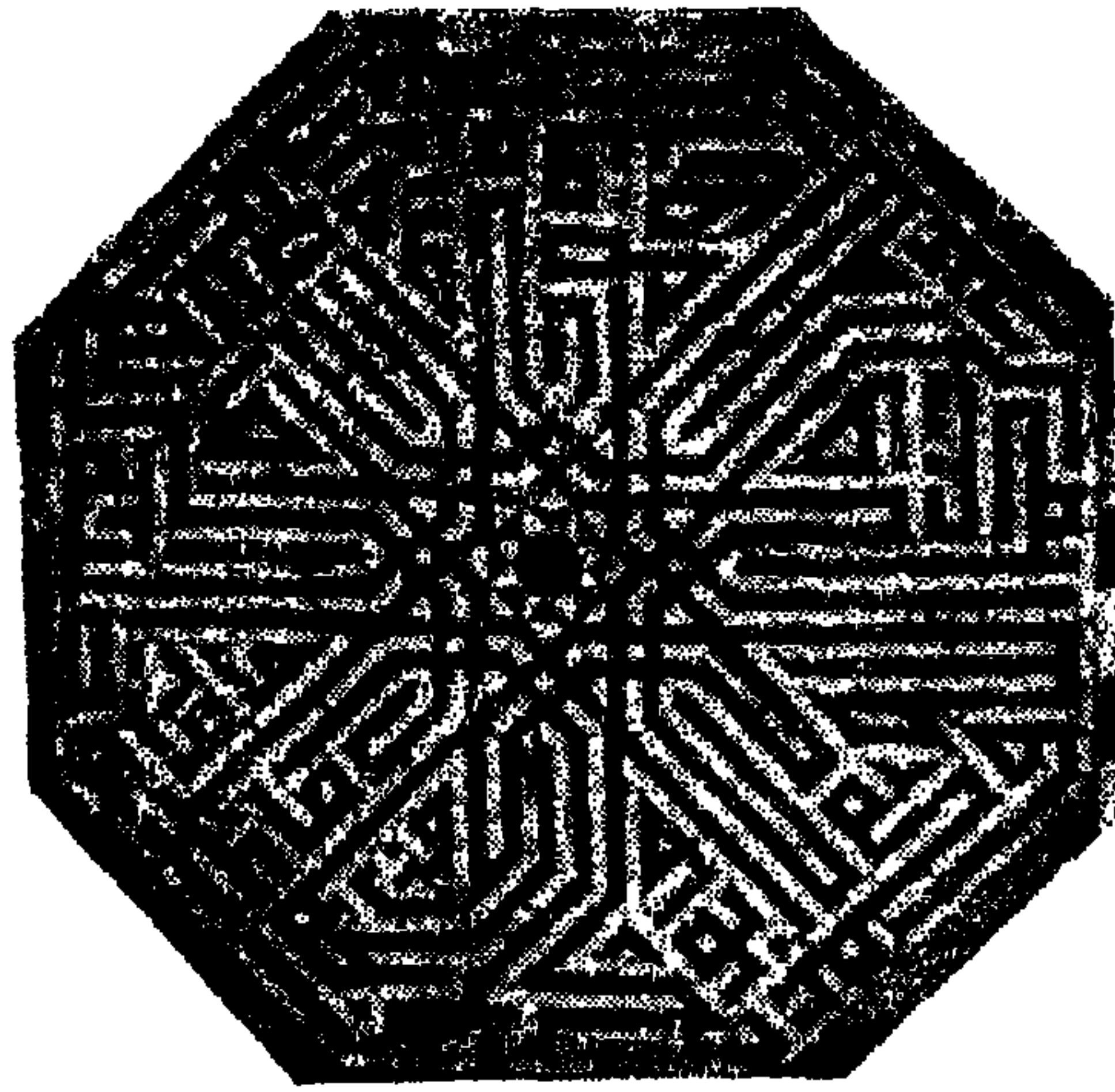
وأما على الرأى الثانى فهو متعلق بالفعل
الماضى المقدر بعد الفاء فى قوله سبحانه :
« فاسأل » . والتقدير : ولقد آتينا موسى

تسع آيات بينات فقلنا له : اسأل بنى إسرائيل
حين مجيئه إليهم : أى قلنا له حين مجيئه إليهم :
اسألهم من فرعون واطلب منه أن يخلي
سبيلهم : فلما طلب منه ذلك غضب
واستكبر ورد عليه ذلك الرد الفاجر السفيف :

والحمد لله رب العالمين

عبد الرحمن تاج

عضو المجمع



حماة

للدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

ليست

قيمة البحث والتنقيب
عن أحد الألفاظ
محصورة في ذلك اللفظ

وحده ، وإلا كان الأمر أهون من أن يشغل به أحد نفسه ويضيع وقته فضلاً عن أن يشغل به غيره ويضيع أوقاتهم . فحين تحدثنا في مناسبات سابقة عن «معجم» ورأيناها الجمع الصحيح لـ «معجم»^(١) ، وعن «نواد» ورأيناها جمعاً صحيحاً في القياس لـ «ناد» وأن «أندية» هي جمع «ندي» وليست جمع «ناد»^(٢) ، وعن «وديان»^(٣) ورأيناها جمع كثرة لـ «واد» يستوى في صحته مع «أودية» التي هي جمع قاة للفظ نفسه — حين تحدثنا عن كل ذلك قصدنا إلى أمرين لهما في رأينا قيمة تستحق هذا العناء :

أولهما — أن هذه الجموع التي شاعت تخطتها بين جمهرة العلماء وأهل اللغة في

زماننا ، هي وحدها الشائعة الغالبة على السنة الناس وفي كتاباتهم في جميع البلاد العربية خلال هذا العصر ، وحتى أولئك الذين يحرصون — عن وعي وتعمد وفي تكلف ومشقة — على تجنب استعمالها مسايرة منهم للرأي الشائع في تخطتها . لا يلبثون حين ينساقون مع طبعهم وسليفتهم أن تجري بها ألسنتهم وأقلامهم ، فنجد في الحايث الواحد والمقالة الواحدة الجمع^(٤) معاً . وايس أدل من ذلك على استحكام هذه الجموع وتمكنها في الاستعمال . وثانيهما — أن مفرد كل جمع من هذه الجموع عربي صحيح ، وأن صيغة جمعه — الذي ذهبوا إلى تخطتها — هي من الصيغ التي جاء على مثالها جموعٌ عدد كبير من المفردات بُنيت على بناء هذا المفرد نفسه ، حتى كانت هذه التسيغة قياسية مطردة — فيما نص عليه القدماء أنفسهم — أو كالمطرودة لكثرتها ، وإن لم نجد هذا الجمع ذاته فيما وصلنا من كلامهم .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الخامس والعشرون .

(٢) المرجع السابق الجزء السابع والعشرون

(٣) المرجع السابق الجزء التاسع والعشرون

(٤) ضربنا أمثلة على ذلك في بعض المقالات التي أشرنا إليها في المراجع السابقة .

القياس ، حتى يكون الطريق لاحقاً والهدف
أمماً .

(٢)

وحديثنا الآن مشابه لأحاديثنا السابقة داخل
في بابها ، فهو - مثلها - محصور في صيغ
الألفاظ وأبنيئها : تلك في الخنوع ، وهذا
في المصادر ، ومدارها جميعها على إلحاق
ألفاظ بمثلاتها بشروط معلومة وفي أحوال
مخصوصة . وهي كلها ، بذلك ، أبعد شيء عن
تناول الأساليب والعبارات ونظم الكلام ،
فهذا باب الحرص فيه أدعى والحد من
أوجب لأنه متصل بروح البيان العربي ، وقد كان
مدخلا لكثير من الخطأ والوهم ، ومد رجعة
للعجبة والمجعة ، حتى إنى رأيت فيما كتب
بعض الكاتبين - وهم منا قريب - ما يوهم
أنهم يتحدثون عن ألفاظ بأعيانها ويستشهدون
لها بشواهد من كلام العرب هي صحيحة في
مواضعها التي استشهدوا بها ، ثم لا يلبثون
قياساً على ذلك - أن يذهبوا إلى تصويب
استعمالها في أساليب وعبارات محدثة ، والنظم
غير النظم ، والاستعمال غير الاستعمال ،
فخفيت عنهم في الاستدلال دقائق ولطائف
هي في الحقيقة سر النظم ، فأنتهوا بنا إلى شيء
لا يمت إلى العربية بسبب ، وليس هنا موضع
التفصيل وضرب الأمثلة .

ثم إن هذا الحديث ، مثل الأحاديث السابقة ،
يبدأ بالقياس ويقوم عليه ولكنه لا ينتهي إليه .
فنحن نقيس اللفظة المفردة التي تشيع في
الاستعمال بين الجمهرة الغالبة من الناس

هذان الأمران معاً متكاملين هما اللذان
يكسبان هذا الحديث الذي نتجشم عناءه قيسه
وخطراً ، لأنهما يخرجان به من حدود الجزء
إلى نطاق الكل ، ومن اللفظة ذاتها التي يدور
عليها البحث إلى ظاهرة عامة حين تجتمع لهذه
الظاهرة أركانها كاملة دون إغفال شيء منها
وبعض هذه الأركان دقيق خفي ، إذا غفل
عنه الباحث انزلق في مهاوى الخطأ . ومن هنا
جاء حرص الحريصين على ضرورة بحث
كل حالة وحدها من هذه الألفاظ دون
وضع قواعد مطردة يقاس عليها .

هذان الأمران المتكاملان معاً هما : شيوع
اللفظ شيوعاً عاماً غالباً على السنة أهل العصر
وأقلامهم ، في جميع الأقطار العربية ، وشيوع
صيغته وبنائه في ألفاظ كثيرة أخرى تشترك
معه في الخصائص والأركان . مما ورد عن
العرب وشاع في استعمالهم .

وإذا كنا لا نقر مذهب التسرع إلى التخطئة
لأنه يحجر على العلماء والكتّاب ويحول بين
اللغة والتطور في مسار طبيعي ، وينفي من
اللغة ألفاظاً هي منها في الحقيقة ، فلا بد من
التنبية إلى خطر المذهب المخالف الذي يدعو
إلى التوسع في قبول ألفاظ كثيراً ما تكون
على قياس غير صحيح لخفاء بعض عناصره
وأركانه الأساسية ، وحين لا تدعو حاجة
حقيقية إلى قبولها ، وخاصة إذا لم يجتمع
في هذه الألفاظ الأمران المتكاملان اللذان
أشرنا إليهما . وعلى هذا لا بد من التثبت
من دقة المقياس ، ومن سلامة خطوات

في الأقطار العربية كلها ، على نظائرها في بناءها اللغوي ١٤ أجمع القدماء على صوابه ، وإن لم تكن هذه اللفظة المفردة ١٥ دونوه ووصل إلينا . ونطيل في سرد كثير من هذه النظائر لتطمئن نفوسنا إلى هذه الكثرة من جانب ، ولنجمع من جانب آخر ضروب هذه الصيغة كلها فلا تفوتنا أدق خوافي المشابهة بين المقيس والمقيس عليه . حتى نصل في كل ذلك إلى حكم محدود لا نتجاوزه وهو أن هذا اللفظ الشائع اليوم والذي ذهب بعضهم إلى تخطئته لأنه لم يرد فيما دونه القدماء في المعاجم وكتب اللغة ، هو صواب لأنه يجري على القوالب الموروثة وتنطبق عليه القواعد الموضوعية ، وهو من كلام العرب وإن لم يصلنا ماداً ونائلاً لأنه جرى مجرى كلامهم وقيس عليه . وقدما قال سيديويه في كتابه (١) : «إِنَّمَا هَذَا الْأَقْلُّ نَوَادِرُ تَحْفِظُ عَنْ الْعَرَبِ وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ الْأَكْثَرُ يُقَاسُ عَلَيْهِ » ومن هنا جاء حرصنا على الاستكثار من جمع النظائر والأمثلة . وكذلك قال ابن جني في خصائصه (٢) : «واعلم أن من قوة القياس عندهم اعتقاد النحويين أن ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب» .

وإذا كنا نبدأ بالقياس ونعتمد عليه — بالمعنى الذي وضعناه — فلأننا لا ننتهي إليه ، ذلك لأننا لا نعتسف الطريق فننتهي إلى وضع

قاعدة عامة مطردة تشمل كل ما جاء على هذه الصيغة سواء أكان من الألفاظ الشائعة في الاستعمال في عصرنا أم لم يكن مستعملاً شائعاً ، فهدفنا ليس اختراع قواعد جامدة تخضع لها اللغة كلها بحجة التيسير والتقريب ، وإنما هدفنا الاستثناس والاحتجاج بنظائر كثيرة مما ورد في كلام العرب ، للفظ يشيع استعماله في هذا العصر بين العرب كافة ، وإن لم ينقل هو نفسه إلينا ، والاستدلال من ذلك على صوابه بعد أن جرى على الألسنة وفي الكتابة واستساغه ذوق العصر .

وقد تكلفنا هذا الإطناب كله وأكثرنا فيه من التكرار الذي قد يثقل على القارئ ، لنضع مثل هذه الدراسات في موضعها الصحيح ونحصرها في نطاقها الذي لا يجوز أن تتعداه بحيث لا يؤخذ منها إلا بقدر الحاجة إليها .

(٣)

واخترنا موضوعاً لهذا المقال كلمة «حماس» التي ذهب إلى تخطئها كل من نعرف ممن نصب نفسه لتتقية اللغة من الشوائب والعثرات منذ مطلع هذا القرن ، وأولهم الشيخ إبراهيم اليازجي في سلسلة مقالاته التي كتبها عن «لغة

(١) ج ٢ : ص ٢١٥ - ٢١٦

(٢) ج ١ : ص ١١٤

الجرائد»^(١) ، ثم الشيخ المنذر^(٢) وأسعد خليل داغر^(٣) ، وآخرهم فيما نعرف زهدى جار الله^(٤) ، وقد أجمعوا على أن صوابها «حماسة» بالتأنيث .

ثم رأينا جماعة آخرين لا يقاتلون حرصاً على لغتنا ، يردُّون عليهم ويذهبون إلى صواب الكامة بالتذكير : غير أن هؤلاء المصوِّبين اجتزأوا من الحديث بأقله : ورتبوا نتائج على مقدمات لا تقود إليها بالضرورة ، واعتمدوا على مراجع لا يُعتمدُ بها في هذا المضمار — على نفعها واستيعابها — ولم يوردوا من الأقيسة وشواهد ما يدعم مذهبهم وسنسردها أسماء ثلاثة منهم ونسوق حديثهم كاملاً على إيجازه .

فأقدم من يعرف منهم ممن تناولوا هذه الكلمة بالحديث المرحوم الأستاذ أحمد العوامري قال^(٥) : « يتوهم كثير أن الحماس بمعنى الحماسة خطأ . وقد كان هذا اللفظ إلى عهد قريب شائعاً في الصحف ، فأخذ

يقول حتى كاد يختفي منها ، ولكنه شديد الشيوع الآن في لغة التخاطب فقلما تسمع من الناس كلمة الحماسة^(٦) . والحماسة والحماس بمعنى واحد كما ستري : قال في اللسان : الحماسة : المنع والمخاربة : وقال : الحماسة : الشجاعة . وفي شرح القاموس الحماسة : الشجاعة والمنع والمخاربة : وفيه : والحماس كسحاب : الشدة والمنع والمخاربة . فقد تبين لك أن اللفظين متفقان معنى . »

واتفاقهما في المعنى أمر لم يختلف فيه أحد ، ولكن المختلف فيه هو صواب استعمال لفظ «حماس» بالتذكير . ولم يحتج على صحته إلا بوروده في شرح القاموس ، وصاحب هذا الشرح محدث لا يحتج به ، على جلال قدره . وقيمته فيما ينقل عن غيره ، وهو لم يذكر لنا من أين أخذ الكلمة . ولم نجدها في كتاب قباه .

وثانيهم المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات الذي قدّم إلى مجاس مجمع فؤاد الأول للغة العربية في ٢ مايو سنة ١٩٥١ « طائفة من

(١) مجلة القضاء ، الجزء الثامن - ٣١ يناير ١٩٠٥ ص : ٢٢٦ والطريف انه يذكر ان العامة كلهم يقولون الحماسة.

(٢) كتاب المنذر الى المجمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء الأول ص : ٣٢ (الطبعة الثالثة) مطبعة الاجتهاد :

بيروت ١٩٢٧

(٣) تذكرة الكاتب ، مطبعة المقتطف والمقطع بمصر ١٩٢٣ ، ص : ٨٦

(٤) الكتابة الصحيحة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص : ٧٦

(٥) مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ، الجزء الأول سنة ١٩٣٤ ص : ١٦٦

(٦) قابل هذا الحذف الذي لا يزال صحيحاً حتى الآن بما ذكره الشيخ ابراهيم اليازجي من أن العامة كلهم يقولون الحماسة (انظر الحاشية السابقة رقم ١) .

الألفاظ المسدوعة عن المحدثين على خلاف ما سيجع عن العرب الأولين في الصيغة أو في الدلالة فمناشها المجلس وأقر بعضها في هذه الجلسة والبعض الآخر في الجلسة الختامية للدورة الثامنة عشرة بعد أن درستها لجنة «الأصول» ومن هذه الكلمات :

« ٣١ - الحماس : سمع من المحدثين استعمال الحماس بدون تاء : والمسموع عن العرب : الحماسة .

٣٢ - المران : يقول المحدثون : مران ، بدون تاء ، والمسموع عن العرب : مرانة^(١) .

وثالثهم الأستاذ محمد العدناني ، قال^(٢) : « ويخطئون من يقول : فلان كثير الحماس . ويقولون إن الصواب هو : كثير الحماسة ، ومعناها الشجاعة وقال التاج في مستدركه : الحماس هو : الشدة والمنع والمخاربة . ونقل عنه متن اللغة ذلك . أما الحماسة فقال إنها الشجاعة والمنع والمخاربة كما قال اللسان . أما الصحاح فقد قال : الحماسة : الشجاعة ، ويخطئ من يقولها : الحماس^(٣) !! ولكن الوسيط قال : الحماس والحماسة : الشدة والشجاعة والمخاربة . لذا علمنا (!!) أن نستعمل كلمة الحماسة والحماس دون تردد !! ما دامت الكلمتان

تحملان في المنع والمخاربة ، حسب رأي التاج والوسيط ، والمخاربة لا تكون دون حماسة » .

ولا تعيب لنا على هذا الكلام سوى القول إن التاج و متن اللغة والوسيط : كلها - على نفعها وقيمتها - ليست حجة على صواب هذا اللفظ ، لمجرد أنه ورد فيها وإن كان يجوز الاستئناس ، وليس الاحتجاج بما ورد في التاج لأسباب نذكرها بعد قليل . فقد بقي إذن فضل حديث عن هذا اللفظ نرى أن نورده فيما يلي .

(٤)

لم نجد كلمة « حماس » بالتذكير وفتح الحاء المهملة ، فيما وصلنا من المعاجم وكتب اللغة حتى المائة الثانية عشرة الهجرية . وأجمعت كلها : إلى الإقتصار على « حماسة » بالتأنيث بمعنى : الشجاعة والمنع والمخاربة . وفيها أيضاً « حيماس » بكسر الحاء ، مصدر « تحماس » . إلى أن جاء محمد مرتضى الزبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ فذكرها في مستدركه على القاموس قال : « وما يستدرك عليه ... والحماس كسحاب : الشدة والمنع والمخاربة » فهل رآها الزبيدي فيما كان بين

(١) الدورة التاسعة عشرة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م الجلسة السادسة

(٢) مجمع الأخطاء الشائعة ، ص : ٧٠ ، رقم ٢٣٦ ،

(٣) ثم يذكر الجوهري في صحاحه لفظ « حماس » فكيف يخطئها ؟ غير أن شقيق هذا المعجم الأستاذ أحمد عبد النفور عطار ذكر في الحاشية معلقاً على قول الجوهري : « والحماسة : الشجاعة » مايلي : ويخطئ من يقولها : « الحماس » . وهذا من كلام محقق الطبعة وليس من كلام الجوهري في الصحاح .

يديه من أصول ضاعت بعده ولم تصل إلينا
أو لم نعتز عليها بعد ؟ أو هل كان يضيف
في مستدركه كلمات مما جرى استعمالها
وشاع في عصره والعصور القربية السابقة
عليه إذا كانت على قياس العربية في نظائرها
وبنائها : ولو لم تكن مما تضمنته كتب
اللغويين ومعاجمهم ؟ والأول عندنا هو
الأرجح لأن كلام الزبيدي في مقدمته
واضح في الاختصار عليه ، قال : « وليس
لي في هذا الشرح فضيلة أمت بها ولا وسيلة
أتمسك بها سوى أنني جمعت فيه ما تفرق
في تلك الكتب من منطوق ومفهوم ، وبسطت
القول فيه ولم أشيع باليسير وطالب العلم
منهم ، فمن وقف فيه على صواب أو زلل
أو صحح أو خال فعهده على المصنف الأول ،
وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول ،
لأنني عن كل كتاب نقلت مضمونه فلم أبدل
شيئاً فيقال : وإنما إثم على الذين يبدلونه .
بل أدبت الأمانة في شرح العبارة بالنص .
وأوردت ما زدت على المؤلفين بالنص » .

فمن أين إذن جاء بكلمة « حماس » وهي
غير موجودة في كل ما وصل إلينا من
المعاجم وكتب اللغة التي اطلعنا عليها واطلع
عليها غيرنا من المؤرخين بدليل أنهم ذهبوا
إلى تخطئها لأنها لم تتضمنها تلك المعاجم والكتب ؟
أحسب أن الإجابة عن هذا السؤال غير

ميسورة مما في أيدينا : ونحسب أن تكشف
مقبل الأيام ما خفي عنا . وإيست هذه الكلمة
وحدها هي التي انفرد بذكرها صاحب
التاج مما لم نجده عند غيره ، فقد أشرنا في
نحشنا عن « وديان وأودية » أنه استقل بذكر
« وديان » جمعاً لـ « واد » في مستدركه .

ومن كان مثل الزبيدي في علمه وجمعه
واستقصائه وإطلاعه : كان حرياً بالثقة
والقبول . وهذا ما فعله بعض من ذهب إلى
صواب كلمة « حماس » حين اعتمدوا على
ما ورد في التاج وحده ، أما غيرهم من
ذهبوا إلى تخطئها فلإمتانهم لم يروها في
المستدرك وإمتانهم لم يقنعوا بما قنع به
الآخرون .

ثم إننا رجعنا إلى ما استطعنا الرجوع إليه
من شعر العرب ونثرهم ، فإمتانهم يستعملون
« الحماس » سوى احتمال أن يكون ذلك في
بيتين للشاعر فتية الأسدي الشاغوري المتوفى
سنة ٦١٥ هـ ، قال في الأول (١) :

وبلغتم بالرأى ما لم يستطع
إدراكه باللامم أمد حماس

وقال في الثاني (٢) :

يجود فيغني الموالى سماحا
ويسطو فيغني الأعادي حماسا

(١) ديوان فتية الشاغوري ، تحقيق أحمد الجندي ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ ،

ص : ٢٣٢

(٢) ص : ٢٣٦

وقد ضبط المحقق الحاء في البيت الأول بالكسر ، وفي البيت الثاني بالفتح ، ولست أدري ما الذي حمله على أن يخالف بينهما ، وقد ينازعه منازع أن الحاء في الكايتين مكسورة ، أو أنها فيهما كايهما مفتوحة ، فلا دليل على ذلك ، ولا حجة فيه .

ولم نجدها كذلك في الكتب القديمة التي تتبعت أو هام الخواص في اللغة أو لحن العوام وحرصت على تثقيف لسانهم . فهل مرّد ذلك إلى أن هذه الكلمة لم تكن مما استعملوه وجرت به الأقلام فلم تقع عينهم عليها لينبهوا على صحتها إن كانت خطأ ، أو أنها كانت تجري بها أقلامهم وألسنتهم ولكنهم لم يجدوا فيها ما يستنكرونه فسكتوا عنها لصحتها ؟ سيظل هذا السؤال أيضاً بغير إجابة شأنه شأن السؤال الأول عن المصدر الذي اعتمد عليه الزبيدي في إثبات الكلمة في مستدرّكه .

فإذا كان هذا النمط من البحث عن الكلمة في كتبنا لم ينته بنا إلى وجودها فيها ، فهل من سبيل أخرى أمامنا نسلکها لبحث صحة الكلمة ؟ أحسب أن نعم .

(٥)

وأول ما نلاحظه هنا أن إغفال المعاجم وكتب اللغة لإيراد أحد الألفاظ لا يعني أن ذلك اللفظ غير موجود حقاً ، أو أننا نخطئ

حين نستعمله . فلم يدع أحد أن تترك المعاجم والكتب قد قيدت اللغة جميعها . وما أفيد هذه الفهارس التي تلحق بالطبعات الحديثة المحققة تحقيقاً عامياً لبعض كتب تراثنا ، والتي تتضمن الألفاظ التي وردت في تلك الكتب ، لم يرد في المعاجم . وفضلاً عن النقص الطبيعي الذي يعتور كل عمل بشري فيحول بينه وبين استيفاء كل شيء ، نجد هذه المعاجم والكتب قد أغفلت كثيراً من الألفاظ حين يكون بناؤها قياسياً ، وقد نصّوا على هذا الإغفال في مواطن متعددة من معاجمهم وكتبهم .

فإذا انتقلنا من هذا الحكم العام إلى تخصيصه بلفظي « حماس » و « حماسة » وجدنا مصادر على وزن « فَعَال » بالتذكير وفتح الفاء أغفلتها المعاجم واقتصرت على ذكر المؤنث « فَعَالَة » ومن أدلّ ما عثرنا عليه في هذا الباب تعايق للأستاذ محمود محمد شاكر على كلام لمحمد بن سلام في طبقاته . قال ابن سلام (١) : « وكان الذي يُسَمِّعُ الناسَ عنه صلى الله عليه ، ربعةُ بن أميةَ بن خاف الجُمَحِيّ ، وكان في صوته رَفَاعٌ » وقال الأستاذ محمود محمد شاكر : « رفاعة الصوت ورفاعته (بالفتح والضم) جهارته ، ورجل رفيع الصوت . ولم أجد (الرفاع) في المعاجم ، ولكن فَعَال وفَعَالَة يتعاقبان كثيراً في المصادر فيما تتبعته منها » .

(١) طبقات فحول الشعراء ، قراءة محمود محمد شاكر وشرحه ، ١ : ٧٤ ، مطبعة المادني بالقاهرة سنة ٧٤

فهذا مثل واحد من المصادر التي أغفلتها المعاجم على وزن «حماس» المذكور واكتفت بالنص على مؤنثه ، وسترده معنا أمثلة أخرى بعد قليل . ولكننا نحب أن نتبع كلام الأستاذ محمود ، ونتوكل على العبارة الأخيرة منه ، لننتقل من خلالها إلى الملاحظة الثانية ، وهي «تعاقب فعال وفعالة كثير في المصادر» . وفي هذا نستشهد بنص ثمين لسيبويه قال (١) : «وقالوا : سَعِيدٌ يَسْعِدُ سَعَادَةً ، وَشَقِيٌّ يَشْقِي شِقَاوَةً . . . وقالوا : الشقاء ، كما قالوا : الحمال واللاذ ، حذفوا الهاء استخفافاً . ونقل الفيومي هذا الكلام في المصباح المنير (جمل) فقال : «قال سيبويه : الحمال رقة الحسن ، والأصل جمالة بالهاء مثل أصبح صباحة ، لكنهم حذفوا الهاء تخفيفاً لكثرة الاستعمال» . ولست أدري أهذا الذي أورده الفيومي هو الكلام الذي أورده لسيبويه ولكن الفيومي زاد فيه ، أو هو كلام غيره بمعناه لسيبويه في موطن آخر من كتابه لم نعثر عليه ؟ غير أن المعنى واحد وكأنما ذهب ابن منظور أيضاً هذا المذهب حين قال : «وَسُمَّ الرجل (بالضم) وسامةً ووساماً ، بحذف الهاء» كأنه يرى أيضاً أن وجود الهاء هو الأصل وحذفت للتخفيف .

فهل أصل هذه المصادر حقاً هو «فعالة» بالهاء ، ثم حذفت هذه الهاء تخفيفاً ؟ وهل هذا هو السبب في التعاقب الكثير في هذه المصادر بين فعال وفعالة ؟ وإذا كان ذلك

كذلك فهل يجوز أن نعتمد على كل ما قدمنا في قبول «حماس» ؟

ونضيف وجهاً آخر لصيغة «فعال» في المصادر ، وذلك ما أورده ابن منظور في اللسان (سلم) قال : «السلام والسلامة : البراءة ، قال ابن قتيبة : يجوز أن يكون السلام والسلامة لغتين كاللذاذ واللاذذة . . . ويجوز أن يكون السلام جمع سلامة» . وهو وجه نكتفي بإيراده استيفاءً للبحث دون الخوض في تفصيلاته .

فنحن إذن أمام ثلاثة مذاهب للقدماء في تفسير هذا التعاقب بين «فعال» و «فعالة» في المصادر . المذهب الأول لسيبويه ، وفيه يرى أن الأصل «فعالة» بالهاء ثم حذفوا هذه الهاء تخفيفاً لكثرة الاستعمال فصار المصدر على صيغة «فعال» بالتذكير . أما المذهبان الآخران فهما لابن قتيبة ، أحدهما : أنهما لغتان ، أي أن بعض القبائل تستعمل صيغة «فعالة» وبعضها يستعمل صيغة «فعال» ، والآخر : أن صيغة «فعال» جمع «فعالة» .

ولسنا بسبيل استقصاء البحث في هذه التفسيرات وترجيح أحدها على الآخر ، ونحسبنا أن نشير إلى أن تعاقب «فعال» و «فعالة» في المصادر قد كان ظاهرة شائعة حتى احتاجوا إلى أن يتلمسوا لها تفسيرات مختلفة .

كتابه هو في مأمن من التخطئة ؟ وهل نستطيع أن نمضي خطوة أبعد ونقول : إن كثرة تعاقب « فَعَال » و « فَعَالَة » وتواترهما في المصادر عند القدماء تجعلنا نحجم عن تخطئة من يستعمل صيغة « فَعَال » ولو لم تذكرها المعاجم وكتب اللغة واقتصرنا على إيراد فَعَالَة ، وذلك بغير لابد منه وهو أن تكون اللفظة التي على هذه الصيغة قد كثر دورانها على اللسان وفي الكتابة في الأقطار العربية كلها حتى أصبحت من مألوف ذوق أهل العصر وشائع استعمالهم مثل لفظي : حماس وممران ، اللتين لم نغثر عليهما حتى الآن في كتب القدماء وشعرهم ، واقتصرنا فيهما على حماسة ومرانة ؟

ناصر الدين الأسد

عضو المجمع

وهذه الأمثلة التي أوردوها لها تظائر كثيرة لا سبيل إلى جمعها على وجه الحصر . ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، فحسبنا منها نماذج تدل على أنها كثيرة متواترة . ونذكر هنا أمثلتهم وبعض تظائرها الأخرى :

براءة وبراء ، جمالة وجمال ، جلالة وجلال ، جهارة وجهار^(١) ، رجاحة ورجاح ، رضاعة ورضاع ، رفاة ورفاع^(٢) ، سفالة وسفال ، سقاوة وسقام ، سماحة وسماح ، سفاهة وسفاه ، سماعة وسماع ، سلامة وسلام ، شقاوة وشقاء ، شماتة وشمات ، صغارة وصغار^(٣) ، ضلالة وضلال ، عفاة وعفاف ، علاوة وعلاء ، كالالة وكلال ، ملاة وملاء^(٤) ، لبائة ولباث ، لذاذة ولذاذ ، وثاقة ووثاق^(٥) ، وسامة روسام ، وقارة ووقار . وكلها بفتح أولها .

فهل نستطيع بعد هذا كله أن نقول إن من يستعمل لفظ « حماس » في كلامه أو

(١) لم تذكر المعاجم « جهاراً » بفتح الجيم عند الحديث عن مصدر الفعل ، وذكرته في درج الكلام عند الحديث عن قومه : « لقيه نهارة جهاراً » فبطوا الجيم بالكسر وقالوا : وبفتح ، وفي اللسان : بكسر الجيم وفتحها وأبى ابن الأعرابي فتحها .

(٢) رفع الزرع يرفعه (بفتح الفاء فيهما) رفعا ورفاعة ورفاعا (بفتح الراء فيهما كلها) و نقله من الموضع الذي يخصصه فيه إلى البيدر (اللسان) .

(٣) لم تذكر المعاجم « الصغار » عند إيراد مصادر الفعل ، وأورده ابن منظور في درج الكلام بعد صفحتين من بداية المادة ، قال : والصغار مصدر الصغير في القدر .

(٤) ملأ الرجل يملأ (بفتح اللام فيهما) ملأه ، فهو ملء .. بين الملأ والملاء ، ممدودان (اللسان) .

(٥) قال في اللسان : الوثاقة : مصدر الشيء الوثيق المحكم ، والفعل اللازم : يوثق وثاقة ، والوثاق : أنتم الايثاق ، تقول : أوثقته إيثاقاً ووثاقاً .

دراسات قرآنية

مذهب المقابل لما بعد "لا" إيجابية للمساواة

للدكتور أحمد الحوفا

تمهيد :

كثير في القرآن الكريم نفي المساواة بين شيئين أو أكثر بهذين الأسلوبين :

الأول : أن تتقدم أداة النفي على الفعل الدال على المساواة ، ويذكر بعده الشيئان أو الأشياء التي لا تتساوى ، كما في قوله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ^(١) » .

وفي قوله سبحانه : « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ^(٢) » .

وقوله عز وجل : « وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ^(٣) » .

وقوله تعالى : « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض ، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاً وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير ^(٤) » .

أي لا يستوي ثواب الذين أنفقوا أموالهم قبل فتح مكة وقاتلوا في سبيل الله وثواب الذين أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا ، وهذا الشق محذوف يدل عليه قوله تعالى : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاً وعد الله الحسنى » وقوله سبحانه : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ^(٥) » .

(٣) سورة فاطر ١٢

(٢) سورة المائدة ١٠٠

(١) سورة النساء ٩٥

(٥) سورة الحشر ٢٠

(٤) سورة الحديد ١٠

وقد يحل محل أداة النفي استفهام يؤدي معنى النفي ، مثل قوله تعالى : « قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ » ^(١) .

والثاني أن يتقدم ذكر الشيئين أو الأشياء المراد نفي المساواة بينهما ، ويجيء نفي التسمية بعد ذلك ، مثل قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين » ^(٢) .

ومثل قوله سبحانه : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تتذكرون » ^(٣) .

ومثل قوله تعالى : « أفمن كان مؤمناً لا كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون » ^(٤) .

وفي كلا الحالين نجد أن النفي تحقق في هذه الآيات وأمثالها بأداة نفي واحدة . ولا فرق بين أداة النفي والاستفهام

المراد به النفي . لكن في القرآن الكريم نفيًا للمساواة بأسلوب آخر ؛ إذ وقعت (لا) النافية مكررة بعد عطف في ثلاث آيات :

(الآية الأولى)

قال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من في القبور ، إن أنت إلا نذير » ^(٥) .

فنفت (ما) في الآية الكريمة الأولى المساواة بين اثنين متضادين هما الأعمى والبصير ، سواء أكان المراد بالعمى والبصر معناهما الحقيقي أم المراد المعنى المجازي لكل منهما وهو الكفر والإيمان ، وهذا النفي جاء على الأسلوب المعهود .

لكن النفي جاء بعد ذلك في أسلوب آخر « ولا الظلمات ولا النور » و « ولا الظل

(٢) سورة التوبة ١٩

(٤) سورة السجدة ١٨

(١) سورة الرعد ١٦

(٣) سورة هود ٢٤

(٥) سورة فاطر ١٩ - ٢٣

ولا الحرور « و « وما يستوى الأحياء
ولا الأموات » .

فلماذا جاءت (لا) مكررة بعد الظلمات ،
وبعد الظل ، وبعد الأحياء ؟ .

لقد تتبعنا ما ذكره بعض المفسرين ،
وآثرت أن أثبتته مرتباً ترتيباً زمنياً ، ثم
أتأمله ، لعلى أرجح بعضه ، أو لعلى
أعرض رأياً آخر .

١- ذكر ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)
رأبين :

أولهما أن بعض نحاة البصرة ذهبوا
إلى أن (لا) تشبه أن تكون زائدة ،
لأنك لو قلت : لا يستوى عمرو ولا زيد
لهذا المعنى لم يجز إلا أن تكون (لا)
زائدة .

والثاني أن غيرهم قال : إذا لم تدخل
(لا) مع الواو فإنما لم تدخل اكتفاءً

بدخولها في أول الكلام ، فإذا دخلت فإنه
يراد بالكلام أن كل واحد منهما لا يساوى
صاحبه ، فمعنى الكلام إذا أعيدت (لا)
مع الواو عند صاحب هذا القول : لا يساوى
الأعمى البصير ، ولا يساوى البصير
الأعمى ، فكل واحد منهما لا يساوى
صاحبه (١) .

٢- وذكر الرمخشري (٥٣٨ هـ) أن
(لا) لتأكيد معنى النفي (٢) .

٣- ونقل القرطبي (٦٧١ هـ) عن
الأخفش سعيد أن (لا) زائدة ، والمعنى
ولا الظلمات والنور ولا الظل والحرور (٣) .

٤- وقال النيسابوري (٧٢٨ هـ) إن
(لا) كررت في الأمثال الأخيرة دون
الأول ، لأن المناقاة بين العمى والبصر
ليست ذاتية كما في سائرهما ، وقد يكون
شخص واحد بصيراً بإحدى العينين
أعمى بالأخرى (٤) .

(١) تفسير الطبري ٢٢/٨٥

(٢) تفسير القرطبي ١٤/٣٣٩

(٤) تفسير التباوري على هامش الطبري ٢٢/٨٤ وقال : قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحي ، وأخر في
الآخرين ، فذهب أهل الظاهر إلى أن ذلك لرعاية الفواصل ، وذهب المحققون إلى أنهم كانوا قبل البعث في ظلمة الليل
فصاروا إلى نور الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، فلهذا الترتيب قدم مثل الكافر وكثره على مثل المؤمن وإيمانه . ولما ذكر
المثال والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب لأن رحمة سبقت غضبه . ثم إن الكافر المصر بعد البعث صار أضل من الأعمى
وشابه الأموات في عدم إدراك الحق ، فقال « وما يستوى الأحياء » أي المؤمن الذي آمن بما أنزل الله « والأموات »
الذين تليت عليهم الآيات ولم تنجع فيهم البيئات ، فأخرجهم عن المؤمنين لوجود حياتهم قبل ممات الكافرين المعاندين

٥ - وذهب أبوحيان الأندلسي (٥٧٥٤هـ) إلى أن (لا) زائدة لتأكيد النفي ، وحكى عن ابن عطية أن دخولها يفيد التكرار ، كأنه قال : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا الظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ولا الأموات والأحياء ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ودل مذكور الكلام على متروكه .

ثم رد أبوحيان على هذا الرأي بقوله : وما ذكر غير محتاج إلى تقديره ، لأنه إذا نفى استواء الظلمات والنور فأى فائدة في تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاء محذوفين^(١) ؟

٦ - أما ابن كثير (٧٧٤ هـ) فإنه لم يعرض للحرف (لا)^(٢) .

٧ - وأما الزركشي (٧٩٤ هـ) فإنه نقل عن ابن عطية أن (لا) دخلت على نية التكرار ، كما سبق فيما نقله عنه أبوحيان الأندلسي^(٣) .

٨ - ثم كتب فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج بحثاً قيمياً مفصلاً أثبت فيه أن النفي في هذه الآيات مسلط على الأفراد نفسها ، لأن الظلمات الحقيقية الخسبية متعددة متفاوتة قوة وضعفاً وشدة وخفة ، وكذلك الظلمات المعنوية التي جعلت تلك تمثيلاً لها وهي الضلالات ، فهي أنواع متفاوتة أيضاً ، وكل من النور الحسى المعهود والمعنوى الذى هو الهداية والرشاد له أفراد متفاوتة قوة وضعفاً .

== ووجد الأعمى والبصير لأن المراد أن أحد الجنسين لا يداوى بجنس الآخر من جهة العمى والبصر ، ولعل فرداً من أحدهما قد يساوى الفرد الآخر من جهة أخرى .

وكثير الكلام في اقرار الظل والحرور ، وإنما جمع الظلمات ووجد النور ، لأن الحق واحد والشبهات كثيرة ، وإنما جمع الأحياء والأموات ، لأن المراد أن أحد الصنفين لا يداوى الآخر، سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد

(١) البحر المحيط ٣٠٨/٧

(٢) تفسير ابن كثير ٥٥٢/٣

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٢٣/٣ و ٣٥٧/٤

ومثل هذا يقال في الظل والحرور ،
فهما مختلفان حسياً شدة وخفة ، أى أن
لكل منهما أفراداً متفاوتة في ذلك . وقد
قال العلماء إن المقصود بهما في الآية
الإشارة إلى المصير الأخرى وما يلقاه الإنسان
فيه من الجزاء ، فهما تمثيل للشواب
والعقاب ، وكل من الشواب والعقاب
درجات متفاوتة تفاوتاً عظيماً .

وكذلك الحال في الأحياء والأموات
وما جعل الأحياء والأموات تمثيلاً لهم وهم
المؤمنون والكفار ، كل منهم ذو مراتب
ودرجات . وإذا كان ذلك كذلك أمكن
أن يحمل نفي الاستواء في كل واحد
من هذه المذكورات على أنه نفي استوائه
في نفسه ، أى نفي تساوى أفرادها ذاتها ،
ويكون هذا أولى وأرجح مما قيل من
زيادة (لا) لأنه يحفظ أصالتها ،
ويوفر عليها معناها^(١) .

تعقيب

١.. هكذا تبين أن الآراء السابقة تدور
في عادة اتجاهات : لأن (لا) إما زائدة
أوشبه زائدة ، وإما لتأكيد النفي ،

وإما أصيلة والنفي منصب على كل كلمة
بعدها لأن الظلمات درجات ولأن النور
درجات ، وإما أصيلة تؤدى معنى مفهوم
من السياق ولكن ما بعدها محذوف دل
عليه المذكور .

فأما القول بزيادتها أوشبه زيادتها فإنه
مرفوض ، لأن القرآن الكريم وهو ذروة
البلاغة أسمى من أن يقع فيه حرف
مزيد أو كلمة مقحمة .

فإن قيل إن الزيادة لغرض بلاغى كان
هذا القول دليلاً على الأصالة واستبعاداً
للزيادة ، لأن الغرض البلاغى لا يتم بغير
ما قيل إنه مزيد .

وأما القول بأنها لتوكيد النفي فإنه
مردود بأن هذا التوكيد لم يجرى في نفي
المساواة بين الأعمى والبصير ، فلماذا
جاء في نفي المساواة بين ما بعدهما ؟
ولو أنها مكررة لتوكيد النفي لوافق جميع
المفسرين على هذا .

وأما الحكم بأنها أصيلة جاءت لنفي
المساواة بين ما تدل عليه كل كلمة بعدها
من درجات ودركات فإننى أرى أنه
لا يلائم الغرض من الآيات الكريمة ،

(١) البحوث والمحاضرات لدورة المجمع اللغوى الثالثة والثلاثين ٨٢

لأنها تمدح الإيمان وترغب فيه وتشوق إليه ، وتذم الكفر وتنفر منه وتحذر من عواقبه بتمثيل حسى لاشك فيه هو أن البصير والأعمى لا يتساويان ، وأن النور والظلام متناقضان ، وأن الظل والحر متضادان ، وأن الحي والميت متباينان ، فكذاك الإيمان والكفر . ومعنى هذا أنه ليس المراد من الآيات الكريمة أن النور درجات وأن الظلام درجات ، ولا أن الظل طبقات وأن الحر طبقات ، ولا أن الأحياء أصناف وأن الموتي أصناف ، لأن هذا معناه أن المؤمنين ذوو درجات وأن الكفار أصحاب درجات ، وهذا حق ، لكنه لا يفيد في هذا المقام مقام الترغيب في الإيمان وبيان آثاره الطيبة الحميدة والتنفير من الكفر وتبيان جرائره الخبيثة .

وإذا كان المؤمنون أصحاب درجات عالية تناسب إيمانهم بالله وطاعتهم له ، فإن الكفار لا يدينون بأنهم أصحاب درجات تناسب كفرهم وأعمالهم ، ولو أنهم آمنوا بهذا فإن إيمانهم به مقطوع عن التفرقة المحسوسة بين هداية الإيمان

وضلال الكفر التي مثلتها الآيات الكريمة بأربعة أمثلة لا يمتري أحد في الإقرار بتباينها .

٢- وكنت قد فكرت طويلا في هذا الأسلوب ، فسنح لي رأى استرحت إليه فلما تتبععت آراء المفسرين وجدت ابن عطية قد أشار إلى هذا الرأى^(١) ، فازددت به اقتناعا وهو أن - والله أعلم - في الكلام محذوفا دل عليه السياق ، والكلام بغير حذف هو : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات ، ولا للظل والحرور ، ولا الحرور والظل ، وما يستوى الأحياء والأموات ، ولا الأموات والأحياء .

ومن عجب أن رأى ابن عطية ظل مجهولا أو مغمورا هذا الزمان الطويل .

وقد يبدو هنا سؤال هو : إذا كانت المساواة بين الظلمات والنور قد نفيت فلماذا كرر هذا النفي بين النور والظلمات؟ وإذا كان نفي المساواة بين الظل والحرور قد وقع فلماذا كرر هذا النفي بين الحرور والظل؟

(١) كما ذكر أبو حيان الأندلسي في رقم (٥) والزركشي في كتابه البرهان ١٢٢/٣

وإذا كان نفي المساواة بين الأحياء
والأموات قد حدث ، فلماذا كرر النفي
بين الأموات والأحياء ؟

أليس في النفي الأول ما يغني عن
الثاني ؟

والجواب عن هذا أن المراد بنفي
المساواة بين الظلمات والنور كما في
في الآية الكريمة هو الدلالة على أن الظلام
لا يستطيع أن يتساحل إلى النور في إشراقه
وهدايته وجماله ونفعه وارتياح النفوس
له وشوقها إليه ، ومن هذا يتبين أن
وجه الشبه مقصور على النور .

أما نفي المساواة المقدر بين النور
والظلمات فإن المراد منه أن النور لا يمكن
أن يهبط إلى ما يتصف به الظلام من
قتام وتضليل ووحشة ومجلبة المضيق
والكآبة والحيرة والمعاطب ، فوجه الشبه
هنا مقصور على الظلام .

كذلك لا يمكن أن يهبط الظل إلى درك
الحر اللافت الخائق الداعي إلى الضجر
والضيق والسقم ، فوجه الشبه هنا مقصور
على الحر ، ولا يمكن أن يسمو الحر إلى
مقام الظل البارد المنعش الشارح للصدور
الملائم للحياة الغليظة والعمل المثمر ،

فوجه الشبه هنا مقصور على الظل .
وكذلك لا يتنزل الحي إلى أن يساوى
الميت في فقدانه للحياة ومخافة الناس
من جثته ومسارعتهم إلى دفنه ،
فوجه الشبه هنا مقصور على الميت ،
ولا يستطيع الميت أن يشبه الحي المتحرك
النائم المستمتع بمظاهر الشعور كلها ،
أي أن وجه الشبه مقصور على الحي .

ومن هذا كله يتبين أن الإيمان والكفر
متباينان أشد التباين ، فلا المؤمنون
يشبهون الكفار في جحودهم لربهم وفي
ضلالهم وفي معصيتهم لخالقهم وفي
غضبه عليهم وفي عقابهم المتوقع ،
ولا الكفار يشبهون المؤمنين في إيمانهم
بربهم وفي اهتمامهم لطاعته وفي رضوانه
عليهم وفي ثوابهم المأمول .

والغرض من هذا تأكيد المخالفة وزيادة
توضيح المباعدة كما نقول : ليس
الناجح كالراسب ولا الراسب كالناجح ،
ونحن نريد أن الناجح لا يشبه الراسب
في إخفاقه وحسرتة ، وأن الراسب لا يشبه
الناجح في ظفريه وبهجتة .

والهدف من ضرب من البلاغة القرآنية
التي تستغنى بالملذكور عن المعذوف المفهوم .

وقد يسترعى الانتباه أن الآيات الكريمة
نفثت مساواة الأدنى للأعلى في حالتين
هما العمى والبصر والظلام والنور ، ونفثت
مساواة الأعلى للأدنى في حالتين هما الظل
والحرور ، والحياة والموت .

وحينما نقدر المحذوف يتقدم الأدنى
تارة ويتقدم الأعلى تارة ، والغرض
من التكرير بتقديم الأدنى مرة وتقديم
الأعلى مرة تأكيد المنافاة ، وإبطال
المشابهة على أى وجه من الوجوه ، سواء
أتقدم الأعلى أم تقدم الأدنى .

ولاشك أن الأسلوب الشائع في القرآن
الكريم وفي غيره يجرى على نفي مشابهة
الناقص للكمال ، ولكن بعض الآيات
الكريمة جاءت لتنبئ عن الكامل شبهه
بالناقص ، مثل قوله تعالى : « إذ قالت
امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في
بطني مُحَرَّرًا ، فتقبل مني إنك أنت
السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب
إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ،
وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم

وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان
الرجيم^(١) .

فتحسرت لأن أملها في أن يكون مافى
بطنها ذكرا أخفق ، إذ كانت نذرته
محذورا لسدانة المسجد الأقصى ، وعبرت
عن حسرتها بأنها وضعت أنثى ، وبأن
الذكر في قوته وجلده على العبادة وقدرته
على خدمة البيت ليس كالأنثى في ضعفها
ولينها وقلة احتمالها ، وكان المعهود أن
تقول : وليست الأنثى مثل الذكر .

ومثل قوله سبحانه : « يا نساء النبي
لستن كآحد من النساء إن اتقيتن فلا
تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه
مرض ، وقلن قولا معروفا »^(٢) .

جاءت الآية الكريمة على هذا النسق ،
ولم تجيء هكذا : ليس أحد من النساء
مثلكن .

أى أنكن يا نساء النبي لستن فى شرف
مكانتكن وعلاء قدركن ونظرة المسامحين
والمسلمات إليكن مثل النسوة الأخريات
فى مكانتهن العادية وافتقارهن إلى

(١) سورة آل عمران ٣٥/٣٦

(٢) سورة الأحزاب ٣٢

ففضلكن وسابقتكن وصلاتكن برسول
الله صلى الله عليه وسلم .

وكذلك قوله تعالى : « أَفَمَن يَخْلُقُ
كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ^(١) » فقدم
الأعلى في نفي المشابهة ، لأن المراد هل
يستوى الله تعالى وهو الخالق القوى
القادر بآلهة تعبدونها وهي مصنوعة
مخلوقة عاجزة عن الخلق وعن النفع
والضرر ؟

وكذلك قوله سبحانه وتعالى : « أَفَمَن
اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ
اللَّهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ^(٢) » .
أى هل يستوى من آمن بالله وأطاعه
واستحق ثوابه ورضاه بمن كفر بالله
وعصاه واستحق سخطه وعقابه ؟

وقوله تعالى : « أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا
حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ^(٣) » .
أى هل يستوى من وعدناه ثوابنا الحق
فيلقبه ومن عصانا فغضبنا عليه واغتر

بنعيم الحياة الدنيا ، وهو في القيامة من
أصحاب النار .

وقوله سبحانه وتعالى : « أَفَمَن كَانَ
مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ ^(٤) »
وقوله عز وجل : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ
فِي الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ ^(٥) »
ففي هذه الآيات الكريمة نفي المساواة أو
المشابهة بين الأدنى والأعلى مع تقديم
الأعلى في الذكر .

ولهذا الأسلوب نظائر في الشعر
القديم ، منها قول المرقش الأكبر :
لَسْنَا كَأَقْسَامٍ مَّطَاعِمُهُمْ
كَسْبُ الْخَنَاءِ وَتَهْجَةُ التَّحَرِّمِ ^(٦)
فنفي عن الأعلى الذين يتعففون في كسب
المال شبههم بالأدنين الذين يملكون
إلى كسب المال أى طريق . وكان
الأسلوب الشائع أن يقول ليس أصحاب
الفساد وانتهاك الحرم مثانا . ومنها قول
معن بن أوس في شكواه من ابن عمه :

(٢) سورة آل عمران ١٦٢

(٤) سورة السجدة ١٨

(١) سورة النحل ١٧

(٣) سورة القصص ٦١

(٥) سورة ص ٢٨

(٦) المفضليات ٤٠/٢ الخنا : الفساد . تهكة المحرم : انتهاك الحرم أى لا نهجو الناس ليعطونا

ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحي

وليس الذى يبني كمن شأنه الهدم
وكان المتوقع أن يقول وليس الذى
يهدم كالذى يبني ، ولكنه أراد بهذا
الأسلوب أن الذى يبني مجد القبيلة
يتصف بالنفع والغيرة والإصلاح
والإيثار والشرف فلا يشبه الذى يهدم
مجد القبيلة ، لأنه يتصف بالتخريب
والتمسير والحق والفساد والدمار .
وقول النجاشي في رده على قصيدة
كعب بن جعيل :
جعلتم عليا وأشياعه

نظير ابن هند أما تستجونا ؟
فهو يلوم الشاميين على أنهم هبطوا
بمكانة علي بن أبي طالب إلى منزلة معاوية
ابن أبي سفيان ، ولم يقل إنهم ارتفعوا
بمعاوية إلى مقام علي .
(الآية الثانية)

قال سبحانه وتعالى : « وما يستوي
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا
المسيء ، قليلاً ما تتذكرون ^(١) » .

فماذا قالوا في (لا) هنا ؟

١- اكتفى الطبري بتفسير الآية
الكريمة ، وجاء في تفسيره قوله :
لا يستوي المؤمنون بالله ورسوله المطيعون
لربهم ولا المسيء ، وهو الكافر يريه ،
العاصي له ، المخالف لأمره ^(٢) .

ولم يذكر شيئاً عن (لا) في
هذه الآية .

٢- وصنع الزمخشري صنيعه ^(٣) .

٣- وكذلك صنع القرطبي ^(٤) .

٤- أما النسفي (٥٧٠١) فقال إنها
زائدة ^(٥)

٥- وأما النيسابوري فلم يذكر
شيئاً ^(٦) .

٦- وأما أبو حيان الأندلسي فقال
إنها كررت لتوكيد النفي ، لأن جملة
الصلة وما عطف عليها طالت ^(٧) .

٧- وأما ابن كثير فلم يذكر شيئاً ^(٨) .

(٢) تفسير الطبري ٥١/٢٤

(٤) تفسير القرطبي ٣٢٥/١٥

(٦) على هامش الطبري ٥٢/٢٤

(٨) تفسير ابن كثير ٨٥/٤

(١) سورة غافر ٥٨

(٣) الكشف ٣٧٥/٣

(٥) تفسير النسفي ٢٥٧/٢٤

(٧) البحر المحيط ٤٧٢/٧

٨- وأما أبو السعود (٥٩٨٢) فقال
مثل أبي حيان ، وزاد عليه أن المقصود
نفي مساواة المسيء للمحسن فيما له من
الفضل والكرامة ، وقال : هذا الرأي
الثاني هو الصواب ، لأن (لا) هنا
أصلية دلت على أن المسيء لا يساوى
المحسن بعد أن فهم من الآية نفسها
أن المحسن لا يساوى المسيء ، لأن
التقدير في (الذين آمنوا وعملوا
الصالحات) ولا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات ^(١) .

٩- ثم ذهب فضيلة الدكتور عبد
الرحمن تاج إلى مثل رأيه السابق وهو
أن المراد نفي استواء المؤمنين الذين
يعملون الصالحات أنفسهم ، لأن
أفرادهم كثيرون متفاوتون في قوة الإيمان
والعمل الصالح . ثم إن المقابل الذي
هو المسيء في العقيدة والعمل له أفراد
كثيرون أيضا متفاوتون في درجات هذه
الإساءة ، فأريد نفي المساواة فيما بينهم
بقوله سبحانه « ولا المسيء » . ولا شك

أن مجموع هذا وذاك يلزمه انتفاء
المساواة بين المحسنين في العقيدة والعمل
والمسيئين فيهما ، فإنه إذا ثبت أن
النوع الواحد قد انتفت المساواة فيه
نفسه، أي انتفى التساوى بين أفراد
نفسه فإنه يلزم انتفاء المساواة بين النوعين
أوبين أفراد النوعين بالطريق الأولى
وهذه نتيجة لا يمكن الوصول إليها مع
زيادة (لا) ^(٢)

تعقيب

١- هكذا مر بعض المفسرين بالآية
مرورا لا ذكر فيه للحرف (لا) وذهب
آخرون إلى مثل ما ذهبوا إليه في الآية
السابقة .

والتعقيب هنا لا يختلف عن التعقيب
هناك ^(٣) .

٢- والذي أرجحه - والله أعلم - أن
في الكلام حذفاً يدل عليه السياق ،
وبغير الحذف يكون التعبير هكذا :
وما يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات
والذين كفروا وعملوا السيئات ، ولا

(١) تفسير أبي السعود ٦٣١/٧

(٢) البحوث والمحاضرات لدورة النجف الثالوث ٨٧

(٣) نفي التساوى بين أفراد ما بعدها لا يحقق الغرض من الآية وهو نفي المشابهة بين المؤمنين والكفار .

الذين كفروا وعملوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أى أن المؤمنين لا يشبهون الكفار في ضلالهم وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم . والعذاب المعدلهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالكفار ، وكذلك لا يشبه الكفار المؤمنين في اهتدائهم وصواب عقائدهم وطيب أعمالهم واستحقاقهم ثواب الله المعدلهم ، فوجه الشبه هنا خاص بالمؤمنين ، كما تبين في الآيات السابقة .

ومن هذا يتضح أن في الآية محذوفا دل عليه الكلام الباقي وأغنى عنه ، وقد تقدم التفصيل والتدليل والتعليل في الآية السابقة

(الآية الثالثة)

قال تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم . وما يُلَقَّاها إلا الذين صَبَرُوا ، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم »^(١) .

١ - قال الطبرى إن (لا) مكررة ، والمعنى ولا تستوى الحسنة والسيئة ، لأن كل ما كان غير مساو شيئا فالشيء الآخر غير مساويه ، كما أن كل ما كان مساويا لشيء فذلك الشيء مساو له ، فيقال فلان مساو فلانا وفلان له مساو ، فكذلك فلان ليس مساويا لفلان ولا فلان مساويا له ، فلذلك كررت (لا) مع السيئة ولو لم تكن مكررة معها كان الكلام صحيحا .

وقد كان بعض نحوي البصرة يقول : يجوز أن يقال (لا) الثانية زائدة توكيدا ، كما في قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله »^(٢) أى لأن يعلم أهل الكتاب ، وكما قال تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة »^(٣) .

وكان بعضهم ينكر قوله هذا في « لئلا يعلم أهل الكتاب » وفي قوله « لا أقسم بيوم القيامة »^(٤) .

٢ - وقال الزمخشري إن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما ، فخذ

(١) سورة فصلت : ٣٤ ، ٣٥

(٢) سورة القيامة ١ - ٢

(٣) سورة الحديد : ٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٤/٢٤

بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا
اعترضتك حسنتان ، فادفع بها السيئة
التي ترد عليك من بعض أعدائك .
ومثال ذلك رجل أساء إليك إساءة ،
فالحسنة أن تعفو عنه ، والتي هي أحسن
أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ،
مثل أن يذمك فتمدحه ، ويقتل ولدك
فتفتدي ولده من يد عدوه ، فإنك إذا
فعلت ذلك انقلب عدوك المشاق مثل
الولي الحميم مصافاة لك .

وقيل (لا) مزيدة ، والمعنى ولا تستوى
الحسنة والسيئة ^(١) .

٣ - وقال القرطبي نقلا عن الفراء
إن (لا) صلة ، أي لا تستوى الحسنة
والسيئة ، وأنشد :

ما كان يَرْضَى رسول الله فعلهم
أو الطيبان أبو بكر ولا عمر
أراد (أبو بكر وعمر) أي لا يستوى ما أنت
عليه من التوحيد وما عليه المشركون
من الشرك ^(٢) .

٤ - وذكر المنيسابوري أن (لا)
زائدة لتوكيد نفي الاستواء ، والمعنى

لا تستوى الحسنة والسيئة قط ،
ومثالهما الإيمان والشرك ، والحلم
والغضب ، والطاعة والمعصية ، واللطف
والعنف ^(٣) .

٥ - وذكر أبو حبان الأندلسي رأيين :
أحدهما أن (لا) زائدة والآخر أنها
أصلية ، لأن الحسنة جنس والسيئة
جنس ، فالمعنى إذن ولا تستوى الحسنات
لأنها متفاوتة في أنفسها ، ولا السيئات
لأنها متفاوتة أيضا ^(٤) .

٦ - أما ابن كثير فلم يذكر شيئا ^(٥)

٧ - وأما الزركشي فقال إن (لا)
تزداد مع الواو بعد النفي ، كما في
هذه الآية ، لأن استوى من الأفعال
التي تطلب اسجين ، أي لاتليق
بفاعل واحد ، نحو اختصم ، فعلم
أن (لا) زائدة .

وقيل إنها دخلت في السيئة لتحقيق
أنه لا تساوى الحسنة السيئة ولا السيئة
الحسنة . وقال إنها ليست زائدة عند من قال
إن جنس الحسنة لا يستوى أفرادها ،

(١) الكشف ٣/٣٩٢ يتفق الرأي الأول ورأى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج

(٢) تفسير القرطبي ١٥/٣٦١

(٣) على هامش الطبري ١٠/٢٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/١٠٠ .

(٥) البحر المحيط ٧/٩٨

وجنس السيئة لا يستوى أفراده ، وهو الظاهر من سياق الآية ، فليست زائدة ، والواو عطفت جملة على جملة^(١) .

٨ - وارتضى فضيلة الدكتور عبد الرحمن تاج ما ارتضاه في الآيتين السابقتين وهو أن المقصود نفي استواء أفراد الحسنة نفسها ، ثم نفي استواء السيئة كذلك ، فإن لسكل من أفراد الحسنة والسيئة أفرادا متفاوتة في القوة والأثر .

وإذا كان الأمر كذلك ثبت بطريق الأولى عدم التساوى بين الحسنة والسيئة^(٢) :

تعقيب

١ - تبين أن الآراء التي قيلت هنا لا تختلف عما قيل في الموضعين السابقين ، فلا مدعاة للمناقشة ، لأن المناقشة السابقة تغنى .

وإذا كان من الحق أن الحسنات متفاوتة القدر والأثر والمثوبة ، وأن السيئات مختلفة الجرم والضرر والعقوبة ، ولهذا جاءت (لا) أصيلة لنفي المساواة بين أفراد ما بعدها ، إذا كان هذا

(١) البرهان في علوم القرآن ٧٨/٣ و ٣٥٧/٤

حقسافإنه لا يناسب ما تشونخاه الآية الكريمة من تبين الفرق الجسيم بين الخير والشر ، وبين الحسن والقبيح ، وبين الإحسان والإساءة ، تمهيدا للأمر بالحلم والصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، لأن هذه المقابلة تستل سخائم النفوس ، وتلين القلوب ، تغرس المودة ، وتوثق صلة الفرد بالفرد وصلة المجموع بالمجموع .

٢ - فأرجح - والله أعلم - أن في الكلام محذوفا ، لأن أصله ولا تستوى الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة ، أى لا تستوى الحسنة والسيئة في شرو السيئة وأذاها وإشغالها للضعف والعداء والانتقام ، ولا تستوى السيئة والحسنة في محامد الحسنة وطيب آثارها وتأليفها لقلوب الأفراد والجماعات . ولا شك أن التعبير بهذه الصورة يتضمن أيضا توكيدا لنفي التساوى بين الحسنة والسيئة ، سواء أكان المقصود محامد الحسنة أم مخازى السيئة أم بيان الفروق العظيمة بينهما كما سبق في الآيات الأولى .

أحمد الحوفي

عضو الجمع

(٢) البحوث والمحاضرات للدورة الثالثة والثلاثين ٨١

اللغة العربية

مكانتها القومية والعالمية في القِيم والحِيث

للأستاذ محمد شوقي أمين

الوثقى بين الناس بعضهم وبعض ، فتجعلهم على صعيد رحيب يسوده جو نقي ، يتبادلون به الآراء والعواطف والأحاسيس ويظهر السواك الاجتماعي العام .

ونحن إذا تأملنا مدلول « القومية » العربية التي نعبر عنها في الغالب بكلمة واحدة ، هي « العروبة » ، تبين لنا أنها لا تعني مجرد جنس أو نسب أو عقيدة ، ولا مجرد علاقات من وحدة الأرض أو ذكريات التاريخ ، ولكنها تعني دلالة صريحة جهرية على معنى بارز موسع من المشاركة الجماعية في كيان متميز ، يسطع فيه لألاء اللغة العربية بكل ما فيها من سحر وجاذبية ، ويكل ما تحتويه من زاد ثقافي وفكري وروحي .

٢- ومكانة « اللغة العربية » قومية يرجع بها التاريخ إلى ما اصطاحنا على تسميته « العصر الجاهلي » . ففي هذا العصر كان للعرب في جمالتهم لغتهم التي وحدت شعورهم بكيانهم وتميزهم ، فبنوا عليها دعائم قوميتهم . وقد غلبت هذه « اللغة المشتركة » على شبه الجزيرة العربية ، وعبرت عن

١- مفهوم « القومية » أشبه بالطيف الشمسي يتكون من حزمة من الألوان ، لكنه يتجمع في بلورة ليبعث شعاعه الألاق . ومهما يكن من تخالف المفاهيم للقومية ، ومهما يكن من تعدد مقوماتها من وحدة أرض أو لغة أو تاريخ أو مصالح مشتركة أو هتافات روحية ، فليس من شك في أن هذه المقومات تلتقي عند الشعور الجماعي بالانتماء ، والتقدير المشترك للذكريات ، والتجاوب الذهني والوجداني في الحالات الحيوية على تنوعها من اجتماعية وثقافية واقتصادية ودينية .

ولا يغالي من يقول بأن « اللغة » هي الأساس في ذلك كله ، إذ هي وسيلة التفاهم الفكري ، وأداة التعاطف الروحي ، فالشعور الموحد مدين أعظم الدين للاشتراك اللغوي في عمقه وشموله .

وليس المقصود باللغة مدلولها السطحي في أنها مجرد وصلة للتعبير عن الأفكار ، ورمز لما يخالج الأفتدة ، بل هي تيار يازج العقل والنفس ، وطاقة تتولد بها الألفة

مرافق حياتها ، وسجلت ألوان نشاطها الاجتماعي والأدبي في نماذج رفيعة من شعر وخطب ، ومن رسائل ووصايا ، ومن قصص وأمثال .

وإن « معجم اللغة العربية » في ذلك العصر المسمى بالجاهلي ليحفل بما ينم عن معارف في زراعة وملاحة ، وفي جغرافية وتاريخ ، وفي فلك ورياضة . كما أنه يدلنا على إبداع عقلي ، وترف ذهني ، وتفوق في التصور والتخيل ، وسمو في المثل والأهداف . ومابالنا نحيل على معجم اللغة العصر الجاهلي ، لم يعن بوضعه أحد بعد ، وبين أيدينا معجم ألفاظ القرآن الكريم ، وماألفاظه في مجموعها إلا نخبة طيبة موثقة من لغة ذلك العصر الذي نعينه ، وهي مرآة صافية صادقة الدلالة على أن صوت السماء القدسي إنما نزل بأخة اكتسبت بالشيوع والشمول صفة « القومية » واكتملت لها بالازدهار والنضج مزية الإبانة والإفصاح .

٣- وإن نمو اللغة العربية ونضجها من حيث الأصوات والصيغ ونظام الحمل ، وقوميتها من حيث الشيوع والشمول في البيئة الحضريّة من ذلك العصر المعروف بالجاهلي ، هو الذي هيأها أن تستقبل الوثبة الكبرى بعد ظهور الإسلام ، فعاشت حياتها المديدة تتفاعل وتتطور ، وتختزن عناصر من القوة والفراة ، حتى نهضت بتيعاتها الحضارية مع التقدم الإنساني المطرد ،

وظلت على اتساع مناطقها لغة مشتركة بين من تظلمهم « القومية العربية » ، محافظة على وحدتها ، متغلغلة في مجموعات من الأمم والشعوب ، حريصة على تحقيق التوازن بين ضرورات التطور والتغيير ومقومات البقاء والصمود . فأتيج لها أن تستوعب مااستوعبت ، مفسحة صدرها لتراث الإنسانية ومعارفها ، وهضمت كل ماقدم إليها ، وقاومت مايعوق انطلاقها . وبهذا جمعت اللغة العربية بين كونها « لغة قومية » وكونها « لغة عالمية » في آن . فهي « بقوميتها » لسان شعور متوحد مشترك ، وثرجمان كيان بارز متميز ، وهي بإحاطتها برقعة كبيرة من المعمورة وجملة وافرة من الأمم والشعوب تمثل « لغة عالمية » بأوفي ماتحتمل الكلمة من معنى (١) .

٤- وقد أعان « اللغة العربية » على ذلك أنها ظفرت باكتساب قدسية التعبير عن وحى السماء ، في كتاب الله المبين ، فأضفى عليها من جلاله ونفخ فيها من سلطانه ، ومن ثم كانت لغة للدين كما هي لغة للدنيا ، وانتشرت في الأصقاع مشرقة ومغربة ، تدرس في أصبهان وشيراز ، كما تدرس في دمشق وبغداد ، وينبغ فيها كتاب وشعراء في قرطبة والحمراء ، كما ينبغون في القاهرة والقيروان ، وبذلك تمت لها الهيمنة من أواسط الهند شرقا إلى جبل طارق غربا ، ومن البحر الأسود شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا . وهي

(١) من أو في ماكتب في اللغة العربية ومكانتها القومية والعالمية ما جاء في مؤلف الدكتور إبراهيم أنيس « اللغة بين القومية والعالمية » وقد اعتمده الكاتب في عدة مواضع .

بذلك أسبق لغة عالمية ، إذ تجلت حقيقتها قبل أن يعرض المحدثون لفكرة اللغة العالمية أو يحددوا معالمها .

٥ - وبوساطة « اللغة العربية » عرفت الأمة العربية في محيطها الواسع : طب أبفراط ، وفلك بطلميوس ، وهندسة إقليدس ، وفلسفة أرسطو ، وسائر علوم إغريقيا والإسكندرية ، ومعارف الهند والفرس والسوريان والقبط ، ولولا أن اللغة العربية نقلت بلسانها تلك الذخائر على أقلام الأعلام في بيت الحكمة ودار العلم وغيرهما من معاهد الترجمة والدرس ، لتأخرت المدنية الإنسانية قرونا . فحضارة البشر مدينة للغة العربية بنهضتها الأوربية الحديثة . ولو تصورنا أن هذه اللغة الحية لم تحافظ على التراث العلمي الحضاري ولم يتح لها تنميته والإبداع فيه على هذا النحو لحاز لنا أن نتصور الإنسانية وهي تبدأ رحلتها العلمية الحضارية من أول الطريق .

إن اللغة العربية لم تعد من منصفى المؤرخين الأجانب من يقول إنه كان لابد من ظهور ابن الهيثم والبيروني والكندي لكي يظهر جاليلو وكيلر وكوبرنيك . ولولا ما أصاب البلاد العربية من محنتها بالمغول والتتار ومن حبسوا الانطلاق العربي في قماقم العبودية والحمود ، لكانت النهضة التي سجلها التاريخ الحديث لأوربا من حظ الأمة العربية بلغتها القومية العالمية ، تتقدم بها الركب الحضاري إلى أمام . وعلى الرغم

من ذلك فإن ضمير التاريخ ، لا يستطيع أن يحدد فضل تلك اللغة التي دونت كنوز العرفان وحملت أمانة إلى من تلقوها بشيرا بالفجر الجديد .

٦ - في تلك العصور التي ازدهرت فيها البلاد العربية بالمعرفة الإنسانية ، استطاعت اللغة العربية أن تواتى العلماء بحاجاتهم من التعبير العلمي الصحيح ، ومكنتهم من أن يستخدموا فصاحة اللغة وطواعيتها لخلق أسلوب علمي قويم ، تتوافر له دقة وعمق وسلامة . وهذه هي مؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيروني والخوارزمي والرازي وغيرهم تشهد بما وفقوا فيه من تجلية الحقائق العلمية النظرية والتجريبية في مختلف ضروب المعرفة ، مستعينين بما ابتدعوا من مصطلحات ومواضيع أصيلة بلسان عربي مبين .

وإن استجابة اللغة للمطالب العلمية والاجتماعية والحضارية بوجه عام ، لم يبرهان ما تميزت به من سعة وغنى ومرانة ، وفي مادتها الغزيرة وأقيستها المتنوعة ، وفي طرائقها للوضع والاشتقاق من الألفاظ والتراكيب ، وفي أدواتها ووسائلها لتأدية ألوان المعاني والدلالات - عون وثيق لمن ينشد عندها التعبير عن كل ما يجد في الحياة من الأعيان وسائر المسميات ، وما يقوم بالنفس من ضروب الخواالج والأفكار .

٧ - ولقد كان إيمان الأمة العربية بقومية لغتها باعتبارها وعالميتها باعتبار آخر ، باعثا لها على أن تحرص على « الوحدة » اللغوية فيما يتداول من الألفاظ والأساليب في معظم ما تتناوله الأقسام وتتناقله الأفهام . ولم يكن ذلك مقصورا على أنماط الأدب وفنونه ، بل كان على وجه أخص في لغة العلم ومواضيعه ؛ فعلى الرغم من تباعد الأصقاع العربية وعسر اتصال بعضها ببعض ، من حدود الصين في الشرق إلى حدود فرنسا في الغرب ، سجلت الثقافة العربية « لغة مشتركة » موحدة لها خصائصها البارزة في عباراتها وفي مصطلحاتها تيسيرا للتبادل الثقافي على أوسع نطاق ، حتى يسعنا القول بأن هناك لغة للعلم تخلقت ونمت وتنوعت على مر الزمن : « بذرت بذورها في القرن الأول الهجري ، وظهرت مصطلحات في علوم الفقه والتفسير والكلام . وتلتها في القرن الثاني مصطلحات في علوم اللغة والتاريخ ، في الأخلاق والسياسة ، في الطب والكيمياء ، في الفلك والهندسة ، واستكملت العلوم العربية في القرن الثالث لغتها ، وتوفرت لها أسباب الحياة . وما إن حل القرن الرابع الهجري ، وهو العصر الذهبي في تاريخ الثقافة الإسلامية ، حتى استقر المصطلح العلمي ، وبدئ بتسجيله في معجمات خاصة ، ومنه ما نقل إلى الفارسية ، والتركية ، ومنه ما سرى إلى اللاتينية بل بعض اللغات الأوروبية الحديثة » - كما في بحث الدكتور إبراهيم مذكور المنشور في الجزء التاسع والعشرين من مجلة « مجمع اللغة العربية » .

وهكذا كان تأصيل « اللغة القومية » وحياتها من عوادي البلبلة والتفكك والفرقة ، عاملا جوهريا في أن تصطبغ بالصبغة العالمية الناصعة ، وذلك بتأديتها لمطالب الحضارة الأدبية والعلمية والفنية والاجتماعية بين أديم وشعوب تراحت بينها دائرة المشابهات وتضايقت دائرة الفروق ، خلال مئات من السنين .

٨ - ولقد أتى على العربية حين من الدهر ، تخلفت فيه بتخلف البلاد العربية عن ركب التقدم الحضاري . وما إن مضى ذلك العهد ، وانقضت غياهبه ، حتى كانت العربية بأصالتها وفراحتها على موعد مع النهضة العصرية الحديثة في بلاد العروبة ، وقد نيف الآن عصر هذه النهضة على مائة سنة ، تتابعت فيها الجهود لتنمية اللغة الحضارية ، فترجم الطب ، الهندسة وغيرهما في مطالع العصر ، بل لقد كان تدريسها بالعربية أول الأمر ، وفي هذا العصر ترجمت شوامخ العلم والفلسفة والفن والأدب ، من أمثال أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير ، وألفت كتب في الفروع العلمية كافة ، وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون ، واستطاعت العربية العريقة ذات التجارب في الأداء العلمي أن تطاوع ما تراد عليه من تأدية المعاني الاصطلاحية : ولم تكن المشكاة عندها نقل المعاني المجردة والأوصاف والشروح بل نقل أسماء الجواهر والذوات والأعيان وبعض المسميات ، ومع ذلك اتسعت لها بالوضع والاشتقاق في الأكثر ، وبالتعريب في الأقل

وبين أيدي قراء العربية ما تتابع خلال مائة السنة الماضية من معجمات ثنائية حافاة بالألوف من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة ، نذكر منها تمثيلاً لاهصر: معجم شرف الطبى ، ومعجم عيسى النبائى ومعجم مظهر للعلوم، ومعجم الشهابى الزراعى ومعجم المعلوف الحيوانى ، ومعجم الجامعة العربية العسكرية ، ومعجم الياس العصرى وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات المعجمات ، وهذا كله غير الجهد الحاشد المتواصل فيما أخرجه «مجمع اللغة العربية» القاهرى من عشرات الألوف من مصطلحات العلوم والفنون والآداب في مجموعات متوالية ، وغير ما لمجمع دمشق ومجمع بغداد وسواهما من الهيئات والمؤتمرات من جهود مساهفة في مجال التعبير العصرى عن التقدم الحضارى .

وفي البلاد العربية على تعددها عشرات الكليات والمعاهد والأندية، تمارس الحياة العلمية الطليقة في أدق مجالاتها وأرفع درجاتها وصميم اختصاصاتها ، واللسان الذى ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها في معظم المجالات هو اللسان العربى القومى العالمى . وتحت أنظارنا المطبعة العربية تخرج في كل يوم، بل في كل ساعة، من الزاد العلمى والثقافى ما يتناول ضروب المعرفة بنسب متدرجة ، وفي العرب الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات المتنوعة ، وقد فتحت أمامهم النوافذ

على الصعيد العالمى ، يحصلون ويعلمون ويؤلفون ويترجمون بالعربية ، على نحو يؤكد احتواءها لأمتهات المصطلحات العلمية وتعبيرها عن أكثرها من مادتها الفصحى . وتلك هى الصحافة العربية تخرج الأمة العربية صباح مساء مصورة أحداث الحياة وشئون الدنيا وما يدور فيها من وجوه الأنشطة ، بلسان عربى ينتقل إلى أذهان قراء العربية في كل مكان ، وهناك إلى جانب ذلك كله ، وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة التى تتجاوب بلغة عربية عصرية حديثة .

وليس من ريب في أن تلك الظواهر السائدة ، أو الحقائق الواقعة ، إنما تفصح في يومنا الراهن عن قومية اللغة العربية وعالميتها اللتين تزدادان مع الأيام استقراراً وشمولاً واطراد نمو ، وتمضيان قدماً في سبيل استيعاب الحضارة الحديثة على اختلاف مناحيها في العلوم والفنون والآداب وسائر مرافق الحياة .

وما يشهد لهذا أوثق شهادة أن الرأى العالمى العام في أوج مستوياته الدولية ، قد اعترف للعربية بقوديتها وعالميتها ، فهى الآن إحدى اللغات المعادودة التى تعبر بها «اليونسكو» ، تلك المنظمة الثقافية الدولية الممثلة لهيئة الأمم المتحدة ، عن دراساتها وبحوثها وسائر وجوه نشاطها الفكرى

٩ - والإيمان بقومية اللغة العربية وعالميتها اليوم . لا ينبع من تحمس لحسن . أو تعصب لعقيدة ، أو تأثير بعامل وهمي من العوامل المفتعة التي تثيرها الدعايات أو الشعارات العارضة ، وإنما ينبع ذلك الإيمان من واقع ثابت له جذوره الراسخة في غير تعمل أو افتعال ، فإن للعدد الجهم من الأمم والشعوب في شرق الأرض وغربها أعراقاً في هذه اللغة الأصيلة ، وإن الاعتزاز بهذه الأعراق عميق إلى أقصى حدود العمق في تلك الأمم والشعوب ، ونعني بالأعراق العزيرة تراث الآباء والأجداد الذين رفعوا مشاعل المعرفة الإنسانية في أحقاب متوالية ، وتركوا آثارهم تزدان بها اللغة العربية في كنوزها الغالية التي تعتبر ركائز للثقافة البشرية الرفيعة على امتداد التاريخ إن الألوفا من المؤلفين باللغة العربية يذكرون بنسبتهم إلى أقطارهم المتعددة من بسيط الأرض ، وحسبنا أن نذكر من أمثالهم : الفارابي والقزويني والمكشوي والحاراساني والأصبهاني والمراكشي والدينوري والأنطاكي والطوسي والمجريطي والحوارزي والبطلانيوسي والأفغانى والهندي والراجكوتي والطبرسي والزنجاني والصاغاني والفيروزآبادي والغرناطي والبستي والقيرواني والفاسي والطنجي والصقلي والزنجشري والشيرازي والتبريزي

والكشغري والجبرتي : فهؤلاء الألوفا ينتسبون إلى بلاد لو رمز لها بنقاط على المصور الجغرافي للدنيا للملأت التقاط معظم الأرجاء ، وإن بلادهم التي نجاتهم ما برجت عامرة بأهلها الذين يباهون بما خلف الأجداد من أمجاد .

١٠ - من هذا كله ، يتبين أن هناك حقيقة تسمو إلى مستوى العقيدة ، فلا سبيل إلى الخلاف عليها ، ولا جدوى من الجدال حولها ، تلك هي أن الأمة العربية بمدلول العروبة الفكرى والثقافى والروحى مصممة على الاستمسك باللغة العربية ، مؤمنة بأنها هي اللغة القومية العريقة الخالدة الحديرة بوصف العالمية الحق ، تلك اللغة التي تتمثل فيها عقلية العروبة ووجدانها ، ويتجلى في مرآتها النشاط العروبي الحيوى ، ويكمن في ذخائرها ما لهذا النشاط من أثر إيجابى فى الحضارة والعمران .

ولن تدخر الأمة العربية وأشياعها وسعافى توكيد أسباب البقاء والنماء لتلك اللغة القومية العالمية التي واكبت أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمن ، تعبر فى طلاقة عن حضارة الكون ، وتنطق فى صدق عن مشاعر الإنسان .

محمد شوقي أمين
عضو المجمع

الاحتجاج للقراءات للأستاذ سعيد الأفغاني

تضافرت جهود أولى العبقريات النادرة في هذه الأمة العظيمة ، على خدمة اللغة العربية في أنحاء شتى متقاربة ومتباعدة ، من حيث كانت لغة القرآن الكريم مصدر التشريع والنظم للكافرين خير الناس قاطبة . ونمت من هذه الجهود — فيما نرى — علوم اللغة العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأصول فقه . . .

وفي « الاحتجاج للقراءات » الذي أعرض له إحدى هذه الفنون التي استغل العلماء بها خدمة للكتاب العظيم ، ولابد من عرض تاريخي موجز للقراءات يمهّد للكلام على الاحتجاج لها والتأليف فيه .

وكان التغيير تغيير أداء أحيانا من حيث الإمالة أو التريق أو التفعيم أو ضبط المضارع الرباعي مثل (نُنزل) و (ننزل) تخفيفا أو تشديدا ، أو تغيير لفظين والمعنى واحد .. إلى آخر ما أخصروا من أحوال أطلقوا عليها خلافا وما هي بخلاف ، إذ لم تكن تؤدي إلى تغيير معنى ولا حكم ، وكلها مسندة إسناداً صحيحاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعدد المادعوت منه ، وعرفوا من أمر هذه الرخصة (٢) ما لم يكرهوا على علم به ، واندرجت هذه الوجوه الكثيرة من القراءة في تعبير

لم يكن كتابة الوحي الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يملأ عليهم كتاباً أو يحى إليه شيء ، من قبيلة واحدة بل من قبائل عدة أكثرها مضرية ، وكان الناس — على اختلاف طبقاتهم — في سعة من أمرهم في قراءة القرآن أول الأمر : كلٌّ يقرؤه بلحن قومه (أي طبقتهم) ؛ حتى إذا آنس أحدهم اختلافاً في قراءة سمعها من إنسان عما أقرأه الرسول ، هرع إليه شاكياً ، فسمع الرسول من كلِّ قراءته فأقره عما قائل : « هكذا أنزلت » (١) .

(١) انظر مثلاً الجامع الصحيح للبخاري ٦-٢٢٧ كيف لبب عمر بن الخطاب هشام بن حكيم لما سمعه يقرأ سورة الفرقان على حروف لم يقرنها الرسول عمر نفسه ، فقاده إلى الرسول فلما سمع من هشام قال : « كذلك أنزلت » ولما منها من عمر قال : « كذلك أنزلت » ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه . «

(الأحراف السبعة) الواردة في الحديث وأريد بالسبعة التعداد والكثرة لاتحديد العدد بسبعة .

كثرت الوجوه المتواترة عن رسول الله في القراءة^(١)، وتفرق الصحابة في الأمصار كل يقرئ أهل مصره بما سمع ، على لهجته . وتعارف الناس هذه الوجوه واللهجات ولم ينكر أحد على أخيه قراءته ، حتى إذا امتد الزمان قليلاً وكثر الآخذون عن الصحابة ، وقع بين أتباعهم شيء من خلاف وإنكار خشي الأجلاء من الصحابة مغيبته مع الزمن ، فحملوا الخليفة الثالث عثمان ابن عفان على معالجة الأمر ففعل ، وكان من رأيه المبارك كتابة مصحف يجتمع عليه قراء الصحابة وكتبة الوحي ، وهؤلاء وأولئك كثير متوافرون .. حتى إذا وقع خلاف كتبه على لغة قريش ، وكذلك كان :

استعار عثمان من أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر المصحف الذي كان جمعه زيد بن ثابت بتكليف من الخليفة الأول بناء على رأى عمر بن الخطاب الذي هاله أن استحر القتل يوم الياة بالقراء ، ففزع إلى أبي بكر ليجمع المصحف والخاف والعُسب التي كتب عليها القرآن .. إلى ما في صدور

الرجال منه فيودع ذلك كله بجمع من قراء الصحابة مصحفاً واحداً حتى لا يضيع من القرآن شيء . فأرسلت السيدة حفصة المصحف ،

« فأمر عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام لينسخوا المصحف في المصاحف ، وقال للرهط من قريش : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم^(٢) » ففعلوا ذلك ، حتى إذا نسخ المصحف رد عثمان المصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق مصحفاً مما نسخوا وأمر بكل ما سواه من القرآن في كل صحيفة ومصحف أن يحرق^(٣) ، « وأجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على ما تضمنته هذه المصاحف وترك ما خالفها من زيادة ونقص وإبدال كلمة بأخرى مما كان مأذوناً فيه توسعة عليهم ولم يثبت عندهم ثبوتاً مستفيضاً أنه من القرآن ، وجردت هذه المصاحف جميعها من النقطة والشكل ليحتملها ما صبح نقله وثبت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم : فكتبت المصاحف على اللفظ الذي استقر عليه في العرصة الأخيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح به غير واحد من أئمة السلف^(٤) .

(١) قال ابن الجزرى . (٧٥١ - ٨٢٣) : وقوله من قال (إن القراءات المتواترة لا حد لها) : إن كان أراد في زماننا فيصح لأنه لم يوجد اليوم قراءة متواترة وراء العشر ، وإن أراد في الصدر الأول فاحتمل - غيث النفع ص ٧ .
(٢) انظر صحيح البخارى ؛ ٢١٩ - والفهرست لابن النديم ص ٣٧ .
(٣) انشر في القراءات العشر ص ٧ . واللام في قوله (ليحتملها) لام العاقبة لالام التعليل ، إذ لم يكن يومئذ لفظ ولا شكل .

كانت تلك المصاحف التي وزعها عثمان على الأمصار مرجع الناس ، إليها يصيرون في قراءتهم وخلافهم ، وبذلك قضى على احتمالات الفرقة في الأجيال القادمة ، وترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثماني ^(١) إثارة للعافية ووحدة الكلمة فكان من ذلك بعد التيسير الأول تقريب بين اللهجات ، وبقي الرسم العثماني ضابطاً لما اتفق عليه منها ، كما كان خطوة واسعة نحو التوحيد ، ثم تكفلت الأعصار المتعاقبة بالباقي .

فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم ، أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء ، واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم : ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم ^(٢) وكانت وجوه قراءاتهم ينظمها ضابط صاغه علماء القراءات في شروط ثلاثة :

١ - صحة السند بالقراءة إلى رسول الله متواترة من أول السند إلى آخره :

٢ - موافقة القراءة رسم المصحف العثماني :

٣ - موافقتها وجهاً من وجوه العربية مجمعا عليه أو مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله : والشرط الأساسي كما يظهر للمتأمل هو الأول أما الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبق تمام الانطباق على القراءات العشر المعروفة ، وليخرج بذلك قراءات متواترة تركها الناس منذ حملهم عثمان على مصحفه ، لخالفها رسمه :

انعقد إجماع علماء القراءة على هذه الشروط ، إلا أن بعضهم اكتفى من الشرط الأول بصحة السند إلى رسول الله ولم

مضت المائة الأولى للهجرة والناس على ما قدمنا لا يقرؤون المصاحف إلا بأقراءهم الصحابة والتابعون ، والمقرئون الثقات الذين يرجع إليهم كثيرون مشهورون ، وانحصرت وجوه القراءات بما تواتر موافقاً الرسم العثماني ، ونسيت القراءات الصحيحة التي لا تنطبق على الرسم : إلا أن ناشئة نشأت لم ترجع في قراءتها إلى المقرئين الأئمة الثقات وإنما اكتفت بما ينطبق على الرسم « فصار أهل البدع والأهواء يقرؤون بما لا يحل تلاوته وفاقا لبدعتهم (٢) ولما كثر الاختلاف بفعل هؤلاء « أجمع رأى المسلمين على أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم

(١) كبعض ما في مصحف ابن مسعود ، وكبعض قراءات أبي ، وبقي علم هذه القراءات عند المختصين .

(٢) إجماع فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ص ٦

يشترط التواتر ، ومهمنا - هنا - بيان ضعف هذا الرأي ونكير العلماء عليه :

أشهر من عرف عنه ذلك في المائة الخامسة للهجرة (١) مكى بن أبى طالب المقرئ المفسر العالم بالعربية ، فقد قال : « القراءة الصحيحة ما صح سندها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وساغ وجهها في العربية ووافقت نخط المصحف » (٢) وشاع هذا القول بعده حتى « تبعه على ذلك بعض المتأخرين ومشى عليه ابن الجزرى (٣) في (نشره) و(طيبته) » (٢) . وهما كتابان صاروا عمدة في فن القراءة يدرسهما كل من أراد تحصيله وكادت (مدرستيهما) تسبغ عليهما التقديس .

واستنكر الحمهرة ذلك حتى قال الإمام السفاقي في كتابه المشهور (غيث النفع في القراءات السبع) بعد أن أورده : « وهذا قول محدث لا يعول عليه » (٢) بل لقد قرر هذا الإمام أن « مذهب الأصوليين ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والمحدثين ، والقراء

أن التواتر شرط في صحة القراءة ، ولا تثبت بالسند الصحيح غير المتواتر ولو وافقت رسم المصحف العثمانية والعربية » (٢) وهذا حكم صحيح يقتضيه المنهج السليم في كل ما يرجع إلى النقل . وبذلك تمتاز وجوه القراءات من الأحاديث الصحيحة التي يكتفى في ثبوت صحتها بنقل العدل الضابط عن مثله في سلسلة تنتهى بالصحابي دون اشتراط التواتر .

ويعجبني من السفاقي استدراكه على ما قد يرد في الخاطر إزاء التواتر فقد لفت الأنظار بقوله :

« ولا يقدح في ثبوت التواتر اختلاف القراء : فقد تتواتر القراءة عند قوم دون قوم ، فكل من القراء إنما لم يقرأ بقراءة غيره لأنها لم تبلغه على وجه التواتر . ولذا لم يعب أحد منهم على غيره قراءته لثبوت شرط صحتها عنده وإن كان هو لم يقرأ بها أفقد الشرط عنده » (٢)

(١) أصله من القبروان وسكن قرطبة وسمع بمكة ومصر من ابن غلبون وقرأ عليه القرآن وكان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل كثير التأليف ، مجوداً للقرآن . أقرأ بجامعة قرطبة وخطب به وانتفع به جمع وعظم اسمه - بغية الوعاة ص ٣٩٦

وترك تأليف أكثرها في القرآن وقراءاته وعلمها ، انظر اسماءها في الأعلام للأستاذ خير الدين الزركلي ٨ - ٢١٤

(٢) ص ٦ ، ٧ غيث النفع (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م) وانظر بحثنا في الاحتجاج من كتابنا (في أصول النحو)

ص ٢٨ - ٣٣ .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الجزري (٧٥١-٨٣٣ هـ) نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، أبو الخير شمس الدين العمري ولد ونشأ في دمشق وابتنى فيها (دار القرآن) ورحل إلى مصر والأناضول وماوراء النهر والحجاز . شيخ الإقراء في زمانه وصاحب المصنفات المشهورة في علم القراءات له (النشر في القراءات العشر) و(تقريب النشر) و(طية النشر) و(غاية النهاية في طبقات القراء) ، وكلها مطبوع وكلها ما عظم نفعا منه في تحقيق هذا الكتاب .

- انظر المصدر الأخير ٢/ ٢٤٧ ؛ والأعلام للزركلي ٧/ ٢٧٤ .

أما القراءة الشاذة فهم في تعريفها فريقان :

الأول : جعلها فيما توفر فيه الشرط الأول والثالث وتختلف الشرط الثاني وهو موافقة رسم المصحف الإمام : وفي هذا التعريف بعض تساهل قياساً إلى تعريف الفريق الثاني الآتي .

الثاني : جعلها فيما فقد التواتر من الشرط الأول ، فمهما تجتمع الشروط الثلاثة في قراءة بسند صحيح غير متواتر فهي - عندهم - شاذة . وأجمعوا على تحريم القراءة بها في الصلاة ، كما تحرم في غير الصلاة أيضاً إذا اعتقد قرآنيها أو أوهم ذلك ^(١) .

هذا وقد قرروا أن الشاذ هو كل ما وراء القراءات العشر المعروفة الآتي بيان أصحابها بعد ^(١) .

فذهبت بذلك أيضاً قراءات صحيحة لسبب يسير هو عدم بلوغها بالتواتر إلى التابعي مع صحتها في نفسها ، وهكذا دواليك حتى ساغ لابن الجزري وهو يؤرخ لحركة التدوين في هذا الفن أن يقول :

« القراءات المشهورة اليوم [يعني الثالث الأول من المئة التاسعة للهجرة] عن السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً في الأعصار الأول : قل من كثير ، ونزراً من بحر ، فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العام اليقين ، وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم كانوا أهلاً لا تخصي وطوائف لا تستقصي . والذين أخذوا عنهم أكثر .. وهلم جرا .

فلما كانت المئة الثالثة واتسع الحرق وقيل الضبط وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان وفي ذلك العصر ، تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات ، فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب

تناقل التابعون قراءات الصحابة بالتواتر ، وذهبت قراءات كثيرة صحيحة بسبب أخذ الناس باتباع المصاحف العثمانية ^(٢) ، وأخذ عن أعلام التابعين خلق كثير لا يحصون

(١) ص ٧ فيثانفع للسفاسقي . أما من حيث الاحتجاج بها على اللغة والقواعد العربية فذلك سليم سائغ إذا صححت نسبتها إلى صحابي أو عربي سليل من التابعين - انظر كتابي (في أصول النحو) ص ٣٠ فما بعد .

(٢) من القراءات الصحيحة التي فضل عليها غيرها ما كان مسموحاً به اتساعاً ورخصة على الناس قبل المصاحف العثمانية من قراءة كل قبيلة بلهجتها « فكان من تيسير الله تعالى أن أمر نبيه بأن يقرئ كل أمة بلغتهم وماجرت عليه عاداتهم فاللهلي يقرأ : (عى حين) يريد (حتى حين) وهكذا يلفظ بها ويستعملها ، والتبسي يهمز ، والقرش لا يهمز ، والآخر يقرأ : (قيل لهم) ، (وغيض الماء) بإشباع الضم مع الكسر .. الخ قال ابن قتيبة : ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد عليه ذلك وعظمت المهنة فيه ..) النشر ص ٢٣ و ٢٤

أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب
خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفي
سنة ٢٢٤ هـ الخ (١)

ومن قبله ألف في القراءات عدد من
العلماء ، من هؤلاء ابن جبير المكي وهو
قبل ابن مجاهد الآتي ذكره بعد قليل ، فقد
صنف « كتاباً في القراءات فاقصر على خمسة
أئمة ، من كل مصر إمام ، وإنما اقتصر
على ذلك لأن المصاحف التي أرسلها عثمان
إلى الأمصار كانت إلى خمسة أمصار (٢)

ونفى الشيخ ابن الجزري يعدد المؤلفين
الذين تابعوا في الإقراء والتأليف ويذكر
المؤلفات المشهورة لهم :

ويعيننا منهم الآن أبعدهم أثراً وأوسعهم
شهرة : أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد
المتوفى سنة ٣٢٤ هـ بعد أبي عبيد بئس عام ،
إذ كان أول من اختار سبعة من أئمة القراء
الكثيرين فألف في قراءاتهم واختار لكل
منهم اثنين ممن روى عنه ، على ما سيأتي تفصيله :
واشتهر اختياره هذا حتى صارت (القراءات
السبع) التي اختارها علماً في القراءة وعناوين
لكتب عدة ومنظومات شتى مشهورة ، هي
إلى الآن المراجع التي تحفظ وتشرح وتدرس
في حلقات الإقراء :

ولد ابن مجاهد بسوق العطش ببغداد
سنة ٢٤٥ هـ وقرأ على شيوخ كثيرين عدداً
منهم ابن الجزري في كتابه (غاية النهاية في
طبقات القراء (٣)) نحواً من مئة شيخ قرأ
على أحدهم عبد الرحمن بن عبدوسى
عشرين ختمة ، ونعت ابن الجزري به (شيخ
الصنعة وأول من سبغ السبعة) (٤) وهو في
شهادة ابن النديم صاحب الفهرست (٥)
« واحد عصره غير مدافع ، وكان مع
فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات
وعلم القرآن ، حسن الأدب رقيق الخلق
كثير المداعبة ، ثاقب الفطنة ، جواداً » :
و « بعد صيته واشتهر أمره وفاق نظرائه
مع الدين والحفظ والخير : ولا أعلم أحداً
من شيوخ القراءات أكثر تلاميذ منه ،
ولا باغنا ازدحام الطلبة على أحد كازدحامهم
عليه .

حكى ابن الأخرم أنه وصل إلى بغداد
فرأى في حلقة ابن مجاهد نحواً من ثلاثمائة مصنف :
وقال على بن عمر المقرئ : كان ابن مجاهد له
في حلقة أربعة وثمانون خليفة يأخذون
على الناس (٥) . وعد له ابن النديم الكتب
الآتية :

١ - كتاب القراءات الكبير

٢ - كتاب القراءات الصغير

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١ / ٣٥٣ نقل عن السيوطي

(٤) ص ٤٧

(٥) غاية النهاية ص ١٤٢ وذكر ابن النديم أنه توفي في شعبان سنة ٣٢٤ ودفن في تربة في حريم داره بسوق العطش ثاني

يوم موته - الفهرست ص ٤٧ .

(١) النشر ص ٣٣

(٣) ١ / ١٣٩ - ١٤٢

بل نقدوه لاختياره العدد سبعة لا أقل ولا أكثر ، فدخل بذلك على العوام وأشباههم وغيرهم وهم "بأن هذه القراءات هؤلاء السبعة هي المقصودة بالحديث الشريف : (أنزل القرآن على سبعة أحرف) ، وانبرى النقاد للومه وإزالة هذا الوهم من النفوس : وصار بعضهم يزيد في تأليفه على السبعة وينقص حتى قال عبد الرحمن الرازي : «إن الناس إنما ثَمَّنُوا القراءات وعشَّروها وزادوا على عدد السبعة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد لأجل هذه الشبهة . . . وإني لم أقتف أثرهم تثميناً في التصنيف أو تعشيراً أو تفريداً إلا لإزالة هذه الشبهة»^(٢) .

الاحتجاج للقراءات :

قدمت كل هذا من تاريخ القراءة والمقرئين^(٣) لأؤيد ما كنت ذهبت إليه منذ سنين طويلة من أن تأليف المؤلفين القدماء يحتاجون للقراءات المتواترة بالنحو وشواهد عكس للوضع الصحيح ، وأن السلامة في المنهج والسداد في المنطق العلمي التاريخي يقضيان بأن يُحتج للنحو ومذاهبه وشواهد هذه القراءات المتواترة ، لما توفر لها من الضبط

- ٣ - الياءات
 - ٤ - الهاءات
 - ٥ - قراءة أبي عمرو
 - ٦ - قراءة ابن كثير
 - ٧ - قراءة عاصم
 - ٨ - قراءة نافع
 - ٩ - قراءة حمزة
 - ١٠ - قراءة الكسائي
 - ١١ - قراءة ابن عامر
 - ١٢ - قراءة النبي صلى الله عليه وسلم .
- وعرف هؤلاء الذين ألف فيهم كتبه بالقراء السبعة . ولعله جمع السبعة في كتاب (القراءات السبع) على ما في كشف الظنون ١٤٤٨ / ٢ .
- وينبغي أن نلفت الأنظار هنا إلى أن اختيار ابن مجاهد هذا لا يعني أن هؤلاء السبعة هم أفضل الأئمة ، فقد انتقده غير واحد بذلك ، وإن كثيراً من الأئمة هم أفضل من بعض هؤلاء مثل يعقوب الحضرمي وأبي جعفر يزيد بن القعقاع وعبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي وغيرهم^(١) .

(١) قال مكي بن أبي طالب : وقد ذكر الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة وأجل قدراً من هؤلاء السبعة . . . وقد ترك أبو حاتم وغيره ذكر حمزة والكسائي وابن عامر وزاد نحو عشرين ممن هو فوق هؤلاء والكسائي إنما ألحق بالسبعة بالأمس في أيام المأمون وغيره ، وكان السابغ يعقوب الحضرمي في وثائق ابن مجاهد في سنة ٣٠٠ أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب « انتشر ص ٣٦ . قلت : وسترى في أقوال الكسائي التي نقلها مؤلف هذا الكتاب للاحتجاج كثيراً من الوهي وضعف الملكة إذا قست بأمثاله من المحتجين .

(٢) انظر النشر ص ٤٣

(٣) جعلت الكلام على القراء السبعة فالعشرة فالأربعة عشر مع روايتهم في مدخل بعد التمهيد وقبل الشروع في الكتاب .

والوثوق والدقة والتحري وهو شيء لم يتوفر
بعضه لأوثق شواهد النحو . ولا أفيض هنا
في شرح مذهبي فقد كنت شرحته واستدللت
له منذ اثنتين وعشرين سنة في كتابي (في
أصول النحو)^(١) ، ولم أكن بدعاً في ذلك
فقد سبقني من العلماء الجهابذة ذوى الفكر
الحر المستقل عدد استشهدت بأقوال بعضهم .

وأى كان فهذا ما وقع ، وعلى الإشارة
إلى شيء من تأريخ التأليف في الاحتجاج
للقرارات :

بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة
العربية ترابط محكم ، فهما تتقن من علوم
العربية وأنت خاوى الوفاض من علوم
القرآن فعلمك بها ناقص واهى الأساس ،
وسبب ذلك واضح لكل من ألم بتاريخ
العربية : فهو يعلم حق العلم أنها جميعاً نشأت
حول القرآن وخدمة له ، فمتن اللغة اهتم
قبل كل شيء بشرح مفردات القرآن ،
والنحو والصرف نشأ لعصمة اللسان من
الخطأ في التلاوة أول الأمر ، وعلوم البلاغة
همها جلاء روعة البيان القرآني لأذهان
الناس ليتذوقوا حلاوته وتلقح ملكاتهم

بفصاحته . . لذا كان أمراً طبيعياً قيام أئمة
القراء بعلوم العربية ، وكان كبارهم أئمة
العربية الفحول كأبي عمرو بن العلاء وحمزة
الزيات ، ويعقوب الحضرى وابن محيص
واليزيدى ، وحتى الكسائي في كوفته على
ضعف ملكته .

وكذلك الرواة عنهم . وهذا الإمام
ابن مجاهد مسبغ السبعة يقول : « لا يقوم بالتمام
إلا نحوى عالم بالقراءات ، عالم بالتفسير ،
عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض ،
عالم باللغة التي نزل بها القرآن »^(٢) .

في المئة الثالثة عصر التأليف بالقراءات
وما قبلها بقليل كانت قراءات الناس متعددة
كثيرة ، وكان كل يفاضل بين القراءة
التي تلقاها والقراءات المستفيضة ، وتعددت
وجوه المفاضلة من حيث التواتر وعدمه ،
ومن حيث جلاله الإمام القارئ وقدمه ،
ومن حيث البلدة التي استفاضت القراءة
فيها مكية أو مدنية أو بصرية أو كوفية
أو شامية ، وكان من جملة ما حكموا
في المفاضلة الوجوه النحوية التي توافقها
القراءة أو تقترب منها . وعلم العربية حينذاك
متسع منتشر اتساع القراءات وانتشارها .

(١) الطبعة الثالثة ص ٣٠ — ٤٥ من بحث الاحتجاج . وقرأت أخيراً للعلامة تونس الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور
ما يفيد اعتراضه على ذلك التحكيم الخطأ ، فقد قال في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) بصدد كلامه على القراءات :
« وأما ما خالف الوجوه الصحيحة في العربية ففيه نظر قوى : لأننا لا ثقة لنا بأحصار فصيح كلام العرب فيما صار
إلى نحاة البصرة والكوفة . وهذا يبطل كثيراً مما زيفه الزحخشري من القراءات بعلته أنها جرت على وجوه ضعيفة في العربية »
— ١ — ٥٥ (تفسير التحرير والتنوير — سنة ١٩٦٤) .

(٢) الوقت والابتداء لابن الأنباري ص ٢٥ نشر مجمع دمشق وتحقيق محيى الدين رمضان .

تجد الاستشهاد بالقراءات ولها مالئاً كتاب سيوييه (١٤٨-١٨٠هـ) وتستطيع أن تعد ذلك مذهب أستاذه الخليل إذ كان كثير النقل عنه والتأثر به، ولو وصل إلينا كتب من قبله لرأينا الأمر مقارباً. ومن المحتمل أن يكون ألف في المئة الثالثة رسائل في الاحتجاج للقراءات وإن لم يصل إلينا علم شيء منها. حتى إذا أدركنا المئة الرابعة وجدنا ابن النديم ينفي على أن لأبي بكر ابن السراج (٣١٦هـ) كتاب (احتجاج القراءة)^(١)، وأن للقارئ النحوي أبي طاهر عبد الواحد البزار (٣٤٩هـ - ٣٤٩هـ) كتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي فيسبق إلى الذهن أنه لا بد أن يستعين في فصله بينهما بالنحو فإذا بلغ ابن مقسم أحد القراء بمدينة السلام (٣٦٢هـ) سرد لنا كتبه في اللغة والنحو والقراءات فكان من بينها (كتاب احتجاج القراءات) وذلك بعد وفاة ابن مجاهد واشتهار تسبيعه. ثم جاء أبو علي الفارسي فألف كتابه المشهور (الحجة في علل القراءات السبع)^(٣) وهو تلميذ ابن مجاهد وعليه قرأ، وتلميذ ابن السراج سابقه في التأليف في هذا الفن، وجعل كتابه شرحاً لكتاب القراءات السبع لابن مجاهد على ما قال صاحب كشف الظنون ١٤٤٨/٢

وقد كنت عزمت - لشهرة الكتاب الواسعة - على دراسته ونشره سنة ١٩٤٧ في إحدى سفرائي إلى مصر، وعكفت في دار الكتب على قراءة أجزائه الستة الضخمة ثم عدلت بعزم، لتطويله الشديد وضعف تأليفه، ولقد كان ابن جني منصفاً في نعته حين قال: «وقد كان شيخنا أبو علي عمل كتاب الحجة فأغمضه وأطاله حتى منع كثيراً من يدعي العربية - فضلاً عن القراءة - منه وأجفاهم عنه». ولا يحظى مطالعة بمادة علمية تعدل ذلك التطويل والاستطراد. وتمنيت لو أن أحداً عرض المادة التي فيه في جزء لطيف يفي بحاجة أهل العالم وطلابهم ويحببهم في الوقت نفسه مكارهه.

فلما كانت سنة ١٩٥٦ في شهرها العاشر حلت تونس ورأيت ما كنت أبغى في مخطوطة لكتاب (حجة القراءات) للشيخ أبي زرعة عبد الرحمن ابن زنجلة وأوصيت بعد مطالعتي إياه بتصويره واصطحبت مصوره معي. وأبو زرعة من مخضري المثمين الثالثة والرابعة. وسيأتي الكلام عليه وعلى كتابه بعد قليل. واطلعت على

(١) ص ٩٢ وبغية الوعاة ص ٤٤

(٢) الفهرست ص ٤٩

(٣) صدر من الجزء الأول في القاهرة (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بغير تاريخ).

كتاب (المختار في معاني قراءات أهل الأمصار) لأبي بكر أحمد بن عبيد الله بن إدريس ، فكان حسن التأليف قريب العبارة ، أداره على معاني ما اختلفت فيه القراء الثمانية (١) (السبعة ويعقوب الحضرمي) في منهج مرضي وصفه بقوله: « اختصرت الترجمة وتنكبت الإطالة ، وملت إلى الإيجاز ، غير مغل بالإفهام و ذكرت [من ذلك ما] يستعين به المتوسط ويتذكر به المتناهي .. » (٢) . ورأيت مؤلفه - بعد الإمعان - قد وفي بشرطه .

ويأتي في المئة الخامسة مكى بن أبي طالب المغربي الأندلسي (٣٥٥-٥٣٧هـ) في كتابه (الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها) يشرح فيه مختصراً كان ألفه في المشرق ، وفي إشارته إلى ذلك ووصفه عمله فيه تأريخ لمرحلة هامة من مراحل التصنيف في هذا الفن ، ورد فعل لعمل أبي على الفارسي الذي طوّل واستطرد وأنعمض ، وترك غصة في قلب مطالعة وحسرة حافزة على استئناف تأليف يقرب الفن إلى القارئ ، ويبعد عنه ما تورط فيه أبو على . وإليك جملاً من مقدمه مكى بعبارة : « كنت قد ألفت بالمشرق كتاباً مختصراً

في القراءات السبع في سنة ٣٩١ هـ وسميته (كتاب التبصرة) فيما اختلف فيه القراء السبعة المشهورون ، وأضربت فيه عن الحجج والعلل ومقاييس النحو في القراءات واللغات ، طلباً للتسهيل وحرصاً على التخفيف ، ووعدت في صدره أني سأؤلف كتاباً في علل القراءات التي ذكرتها في ذلك الكتاب « كتاب التبصرة » أذكر فيه حجج القراءات ... ثم إذا صرنا إلى فرش الحروف ذكرنا كل حرف ومر قرأه ، وعلته وحجة كل فريق ثم أذكر اختياري في كل حرف وأنبه على علة اختياري لذلك كما فعل مرة تقدمنا من أئمة المقرئين ... وذكرت في كتاب (التبصرة) أسماء القراء ورواتهم وأسانيدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ... فهذا الكتاب كتاب فهم وعلم ودراية ، والكتاب الأول كتاب نقل ورواية .»

ولمكى هذا فضل كبير في توسيع نشر هذا الفن في الأندلس والمغرب ، وقد شاعت مؤلفاته فيهما . وأسلوبه في كتابه سؤال جواب ، هكذا اختار لنفسه . وقد وجدت كتاب « المختار » الآن في الذكر أقوى طبعاً من كتاب مكى وأمتن تأليفاً

(١) لا تنسى ما مر بك حول تقدم ابن مجاهد على جمل العدد سبعة .

(٢) الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة جاد الله رقم ١٨ ، وهي في ١٢٤ ورقة كتبت سنة ٥٩٦ هـ

وأرضى طريقة، وهناك كتب أخرى صنف في العصر نفسه^(١)

وأزمنة تأليف هذه الكتب بدءاً من الفارسي متقاربة ومؤلفوها إلى تحكيم مذاهب النحو في القراءات أقرب منهم إلى العكس، سيما غلبت على التأليف في العهد العباسي^(٢)، وبدعة نسج الآخر فيها على منوال الأول، وقد عرفت أن المنهج السليم يقضي بتحكيم القراءات في مذاهب النحو، وتعديل هذه لتساوق تلك حين يكون بينهما تخالف.

آن بعد هذه الإمامة بتاريخ التأليف في الاحتجاج للقراءات أن أقدم مثلاً على كلمة مما اختلفوا فيه واحتجوا له، أنزعه من (حجة القراءات) كتاب أبي زرعة تلميذ ابن فارس وأحد المؤلفين المحجودين في هذا الفن، وقد طال مكثه بين يدي منذ صورته من المكتبة العبدلية في تونس: وعادته أن يبدأ كلامه بقوله: (قرآن فلان وفلان كذا) وحجتهم كذا، وقرأ الباكون (يريد بقية القراء السبعة) كذا وحجتهم

كذا؛ فإن كان هناك أكثر من حجة قال: وحجة أخرى.. وعرج على سرد حججه معتدلاً على المعنى حيناً، وعلى ورود الكلمة كذلك في موضع آخر من القرآن الكريم حيناً آخر، أو على حجة نحوية أو صرفية أو لغوية أو بيت من الشعر أو جملة من حديث أو كلام من يحتج به؛ حتى إذا اكتفى انتقل إلى آية أخرى حتى نهاية السورة. وإليكم ما شرح به قوله تعالى في سورة يوسف ١٢/١٣:

«.. وقالت: هيئت لك»:

(..وقالت: هيئت لك.. - ٢٣)

قرأ أهل العراق: «هيئت لك» بفتح الهاء والتاء؛ أي هلم وتعال وأقبل إلى ما أدعوك إليه. وحجتهم قول الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين
أخا العراق إذا أتينا

أن العراق وأهله
عنق إليك فتهيت هيتاً^(٣)

(١) اسلمت أخيراً على كتاب نشر في بيروت بعنوان (الحجة في القراءات السبع) ونسب لابن خالويه، فلما تصفحته وجدته يعرض قراءات بقوله: (وقرى كذا) ولا يشب القراءة إلى إمام غالباً ولا يدعمها بسنداً، وهذا في عمدته النقل والسند.

ثم قرأت عنه في مجلة (اللسان العربي) بحثاً فيها عنوانه «نسبة الحجة إلى ابن خالويه لا تصح» للأستاذ العلامة محمد العابد الفاسي فقد فيه هذه النسبة. وكان يهتق الكتاب تقدم به إلى ما بقية المكتب الدائم. فكان تقرير الأستاذ الفاسي هذا علماً لعدم قبول اللجنة هذا العمل - (مجلة اللسان العربي: المجلد الثامن ١ / ٥٢١) على أنه - ولو صححت النسبة - لا يرق هذا الكتاب إلى مستوى الكتب التي ذكرناها لعدم الفائدة من ذكر قراءات غير مستندة. والسند والعز وهما دعامة الوثوق في البحوث النحوية.

(٢) باستثناء سيويه الذي كان يستشهد بها ولها معاً.

(٣) في لسان العرب مادة (هيت) وفي شرح المفصل ٢٣/٤: (سلم) بدل (عتق). يقال: جاء القوم عتقاً أي طوائف

كل جماعة منهم عتق، يريد أقبلوا إليك بجماعاتهم.

أما (سلم) فعتاها: متقادون إليك. أشد الفراء محتجاً لهذه القراءة (هيت) لشاعر لم يسمه يخاطب على بن أبي طالب

- معاني القرآن ٤٠/٢

قال الزجاج : أما فتح التاء في (هيئت) فلأنها بمنزلة أصوات ، وليس منها فعل يتصرف ففتحت التاء لسكونها وسكون الياء واختير الفتح لأن قبل التاء ياء كما قالوا : (كيف وأين) .

وقرأ أهل المدينة والشام : «هيئت» وهي لغة :

وقرأ ابن كثير : «هيئت» بفتح الهاء وضم التاء ، وحجته قول الشاعر :

ليس قومي بالأبعدين إذا ما
قال داعٍ من العشيرة هيئت
هم يجيبون ذا (هلم) سراعاً
كالأبائيل ، لا يغادري بيت^(١)

فأما الضم من (هيئت) فلأنها بمعنى الغايات ، كأنها قالت : (دعائي لك) ، فلما حذفت الإضافة وتضمنت (هيئت) معناها بنيت على الضم كما بنيت (حيث) .

وقرأ هشام : «هيئت» بالهمز من الهيئة كأنها قالت : تهيأت لك .

ويشعر القارئ أن المؤلف متمكن في فنه تمكنه في علوم اللغة والأدب ورواية .

الشعر ، موجز في عبارته واثق أنه يخاطب محصلاً في هذا الفن مشاركاً في بقية الفنون العربية عامة ، ولذلك ترك الإسهاب والتطويل وحتى التقديم للكتاب .

وكان يخلط بين ما نسميه اليوم حركات إعراب وما نسميه حركات بناء فيقول مثلاً في قوله تعالى : «فلا تَحْسَبْنَهُمْ» : قرىء برفع الباء ونصبها (بدل قولنا اليوم بضم الباء وفتحها) ، وكذلك قوله : (الحزم) بدل السكون . والظاهر أن هذا كان شأن قوم حتى المئة الخامسة ، أثرا من آثار الكوفيين في عدم الدقة .

وكثيراً ما يعقب بعد إيراد الحجج بالقاعدة بصوغها في إيجاز كقوله (٢/ص ٨٠) في صدد الآية «قال تزرعون سبع سنين دأباً» ١٢-٤٧ لأنها قرئت بفتح الهمزة وإسكانها :

(كل اسم [ثلاثي] ثانيه حرف من حروف الحلق جاز حركته وإسكانه) .

ويغاب إذا كانت الهمزة لغيره أن يسميه في مثل قوله في الصفحة نفسها : (وحجته ذكرها اليزيدي) ولا نستغرب كثرة تردد اسم اليزيدي وغيره من النحاة القراء ، فكتابنا مظنة وجود ذلك فيه بكثرة^(٢) .

(١) أبائيل : جماعات جماعات . ذا هلم ، أى الذى يناديهم به (هلم) مستغيثاً .

(٢) مقتصد الجامعة الليبية في بنغازي هذا الكتاب (حجة القراءات لأبي زرعة) في مطبوعاتها لعام ١٣٩٤ هـ إن شاء الله وهذا البحث من مقدمتي له .

وأكرر التنبيه هنا على أن كلمة الحجة في هذه المؤلفات لا يراد بها الدليل ، لأن دليل القراءة صحة إسنادها وتواترها ، وإنما يراد بها وجه الاختيار : لماذا اختار القارئ قراءته من بين القراءات الصحيحة المتواترة التي أتقنها؟ يكون هذا الوجه أحياناً تعليلاً نحوياً وأحياناً لغوياً

وآونة معنوياً وتارة لأخبار أو أحاديث استأنس بها في اختياره... فهي تعليل اختيار لدليل صحة القراءة ، إذ هي صحيحة بنفسها وتواترها لأبأسباب اختيار قارئ لها. ولا بد من هذا التنبيه لأن عدداً من الباحثين البعيدين عن هذا الفن تورطوا في مزائق ومزلات حين جهلوا المقصود من هذا المصطلح ، كما انزلق قديماً الزمخشري وهو لا يحسن هذا الفن ولا مصطلحه ، حين ظن أن القارئ حر في قراءته أو أنه أسير رسم المصحف العثماني ، وغاب عنه أن القراءة سنة متبعة .

هذا ، ولا بد أيضاً من لفت النظر إلى أن معنى إسناد كل حرف من حروف الاختلاف إلى صاحبه من الصحابة فمن بعدهم هو في تعبير ابن الجزري : « أنه

كان أضبط له وأكثر قراءة وإقراء به ، وملازمة له وميلاً إليه لا غير ذلك . وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراء ورواتهم يراد بها أن ذلك القارئ اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة حسبما قرأ به فأثره على غيره ودأوم عليه ، ولزمه حتى اشتهر وعرف به ، وقصد فيه وأخذ عنه ؛ فلذلك أضيف إليه دون غيره من القراء . وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام ولزوم ، لإضافة اختراع ورأى واجتهاد »^(١)

وتشيع كلمة (الاختيار) في هذا الضرب من تصانيف المقرئين ، وهذا ابن الجزري نفسه بعد أن نقل عن البغوي صاحب التفسير وشرح السنة قوله في أئمة القراءة : « واتفقت كلمة الأمة على اختيارهم [الذين اختاروه] » يعقب بقوله : « وقد ذكرت في هذا الكتاب (النشر) قراءات من اشتهر منهم بالقراءة واختياراتهم^(٢) » : وفي ترجمته لأبي عمرو ابن العلاء يروي قول شعبة : « انظر ما يقرأ أبو عمرو مما يختار لنفسه فإنه سيصير للناس إسناداً »^(٣) .

(١) النشر في القراءات العشر ص ٥١

(٢) المسند السابق ص ٣٧ وينقل عن الدارقطني قوله « وأنتم يعقوب في اختياره عامة البصريين .. الخ »

ص ٤٣

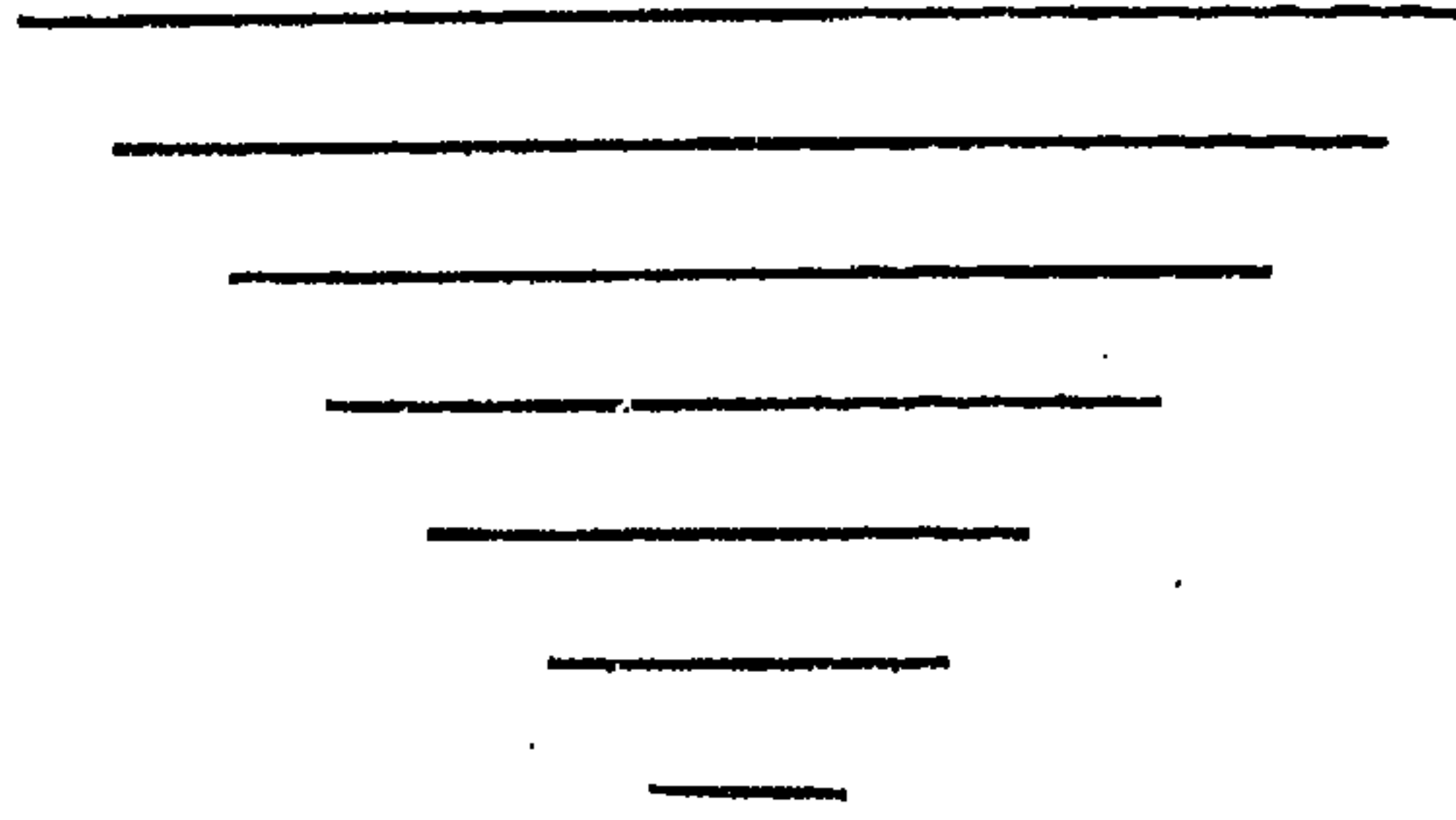
(٣) غاية النهاية ٢٩٢/١

والاحتجاج بها ، وتحكيمها في القواعد ؛
إذ أتيح لها من الضبط ما لم يتح للشعر ولا
للنثر ، ولئن طرح القراء القراءات الشاذة
لمخالفتها الرسم العثماني إن على اللغوي أن يتمسك
بها كل التمسك متى صح سندها إلى
عربي سليم السليقة في عصور الاحتجاج.

سعيد الأفغاني
عضو المجمع المراسل
من سورية

وأضيف إلى ذلك بعد الإمعان في تاريخ
الفن وتراجم رجاله أن هذا الاختيار
لا يحصل إلا بعد أن يتقن القارئ المختص
روايات عدة من القراءات الصحيحة
المتواترة عن أئمتها ، فيختار لنفسه من
بينها واحدة يثبت عليها وتؤخذ عنه .

إن هذه العناية البالغة في تحرى القراءات
لحمل اللغويين على العز عليها بالنواجد



المحصل اللفظي لطفل المدرسة الابتدائية للكوثر فؤاد البرهي السيد

الصحيحة التي يكتبها جميع افراد تلك الفرقة
على عدد الأفراد ٥

وبذلك يمكن الكشف عن الخصائص
العلمية لنمو المحصول اللفظي من السنة الاولى
الابتدائية إلى السنة الثانية الابتدائية إلى نهاية
تلك المرحلة : ولاشك أن لتتابع السنوات
الدارسية علاقة وثيقة بتتابع العمر الزمني . ولذا
تدل تلك النتائج على النمو اللغوي في الأعمار
الزمنية المتتالية للطفل ، كما دلت على النمو
اللغوي في السنوات الدراسية المتعاقبة :

المحصل اللفظي النوعي :

بحسب متوسط المحصول اللفظي النوعي
الذي تبدأ كلماته بحرف هجائي معين لأطفال
فرقة دراسية ما ، وذلك بقسمة عدد الكلمات
الصحيحة التي يكتبها جميع افراد تلك الفرقة
والتي تبدأ بذلك الحرف ، على عدد افراد
تلك الفرقة : ويستفاد من هذا المحصول في
الكشف عن أثر الحرف الأول للكلمة العربية
في تحديد مستوى صعوبتها . فالمتوسط الكبير يشير
إلى السهولة ، والمتوسط الصغير إلى الصعوبة :

هذا المقال نتائج البحث
التجريبي الذي أجري على
٥٥١ طفلاً من اطفال

يلخص

المدرسة الابتدائية بالكويت ، وذلك للكشف
عن متوسط المحصول اللفظي لكل سنة
دراسية : هذا مع العلم بأن المدرسة الابتدائية
الكويتية تشتمل على أربع سنوات دراسية :
وسنبين فيما يلي ماذا نعني بالمحصل اللفظي
والاختبار الذي استخدم لقياس هذا المحصول
وعينة الأطفال التي أجري عليها الاختبار ،
والنتائج التي انتهى إليها البحث ، كما تشمل
في متوسطات الاجابات الصحيحة ،
ومتوسطات السرعة الكتابية ، وترتيب
صعوبة الحروف الهجائية التي تبدأ بها كلمات
المحصل اللفظي بالنسبة لسنوات المرحلة الابتدائية :

المحصل اللفظي العام :

المحصل اللفظي العام هو عدد الكلمات
العربية التي يستطيع الفرد ان يكتبها كتابة
صحيحة في زمن تحدده ظروف التجربة :

ويحسب متوسط المحصول اللفظي العام
لأطفال فرقة دراسية ما بقسمة عدد الكلمات

وبذلك يمكن الكشف عن الصعوبة النسبية للكلمات العربية ، وذلك تبعا للحرف الهجائي الأول الذى تبدأ به الكلمات المختلفة هذا وقد أكدت الأبحاث العلمية أهمية الحرف الأول فى تحديد مستوى صعوبة الكلمة المكتوبة ، ومدى تغير هذه الصعوبة تبعا لتغير السنة الدراسية من الأولى إلى الثانية إلى نهاية المرحلة .

معدل السرعة الكتابية :

تهدف هذه الدراسة فيما تهدف اليه ، إلى الكشف عن معدل السرعة الكتابية لكل سنة دراسية من سنوات المرحلة الابتدائية . ونعنى بالسرعة الكتابية متوسط عدد الكلمات الصحيحة والخاطئة التى يكتبها الأفراد فى زمن محدد ، وبحسب هذا المتوسط لأية سنة دراسية ، وذلك بقسمة المجموع الكلى للكلمات الصحيحة والخاطئة التى كتبها أطفال تلك السنة على عدد هؤلاء الأطفال .

هذا ويمكن حساب معدل السرعة الكتابية بالنسبة لأية وحدة زمنية نصطلح عليها مثل الدقيقة أو الثانية :

اختبار المحصول اللفظي :

تعتمد فكرة اختبار المحصول اللفظي لهذه الدراسة على أنه أكثر الاختبارات المعروفة ارتباطا بالقدرة على التحصيل اللغوى ، وهو يعد بحق المقياس العلمى الصحيح للقدرة على الطلاقة اللفظية .

ويتميز هذا الاختبار أيضا بصلاحيته لقياس المحصول اللفظي من السنة الأولى الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية ، ويمكن أيضا أن يمتد إلى ما بعد المرحلة الثانوية - وبذلك يصلح بخواصه تلك لقياس مدى نمو المحصول اللفظي للفرد خلال مراحل تعليمه المتعاقبة ، وخلال مراحل العمر المتتالية .

وسنبين فيما يلى الصفات الرئيسية لهذا الاختبار :

١ - هدف الاختبار : يهدف الاختبار إلى قياس المحصول اللفظي للفرد ، وبما أن هذا المحصول ينمو تبعا للنمو اللغوى ، إذن فهذا الاختبار يكشف عن المستوى اللغوى للفرد .

٢ - طريقة الاجابة : على الفرد أن يكتب جميع الكلمات التى يعرفها وتبدأ بحرف الألف ، ثم يكتب جميع الكلمات التى تبدأ بحرف الباء ، وهكذا تستمر هذه العملية حتى حرف الياء .

٣ - زمن الاختبار : زمن التعليمات ، والتدريب على طريقة الاجابة ١٥ دقيقة . وزمن الاختبار ٢٨ دقيقة ، أى دقيقة واحدة لكل سؤال ، وبذلك يصبح الزمن الكلى للاختبار مساويا لـ ٤٢ دقيقة ، أى ما يقرب من حصّة دراسية .

٤ - ثبات الاختبار : ونعنى بالثبات مدى اقتراب نتائج البحث من نفسها ، وذلك إذا أمكن تطبيق الاختبار على نفس مجموعة الأفراد تحت نفس الظروف التجريبية

الأولى . ولهذا الثبات أهميته القصوى في مدى اعتمادنا على نتائج الاختبار . وكلما اقترب معامل الثبات من الواحد الصحيح ، ازدادت تبعاً لذلك نقاوة الاختبار من الأخطاء التجريبية التي تؤثر على نتائجها وتحول بيننا وبين الاعتماد عليه . وقد حسب معامل الثبات (بطريقة التجزئة النصفية) ودلت نتائج هذه العملية على أن معامل الثبات يساوي ٠,٩٤ وهكذا نستطيع ان نستنتج من هذه الحقيقة العلمية أن النتائج الراهنة لاختبار المحصول اللفظي ذات ثبات مرتفع جداً :

عينة الأفراد التي أجري عليها البحث :
تشتمل عينة البحث على أفراد من تلاميذ المدرسة الابتدائية بالكويت بجميع سنواتها المتعاقبة ، أي من السنة الدراسية الأولى إلى السنة الدراسية الرابعة من كلا الجنسين ، أي البنين والبنات :

وتم اختيار العينة بطريقة طبقية عشوائية ، وهي طبقية بالنسبة للمستويات المتعاقبة المتتالية للسنوات الدراسية ، وعشوائية بالنسبة لاختيار الشعبة الدراسية في كل من تلك السنوات .

ويدل الجدول رقم (١) على توزيع أفراد عينة البحث بالنسبة للسنوات الدراسية ، وبالنسبة للجنس ذكراً كان أم أنثى .

السنوات الدراسية	المدارس الابتدائية					
	البنين			البنات		
	النجاح	العضيلية	المجموع	هدى شعراوى	أبرق خيطان	المجموع
١	٣٢	٣٥	٦٧	٢٤	٤٠	٧٤
٢	٣١	٣٦	٦٧	٤٣	٣٤	٧٧
٣	٣٥	٣٨	٧٣	٣٤	٢٤	٥٨
٤	٣٤	٣٦	٧٠	٣٦	٢٩	٦٥
المجموع	١٣٢	١٤٥	٢٧٧	١٤٧	١٢٧	٢٧٤
٥٥١						

جدول (١) يبين توزيع عينة البحث

متوسطات الإجابات الصحيحة في المرحلة الابتدائية :

حسبت متوسطات نتائج الاجابات الصحيحة لجميع السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية ، وذلك بقسمة مجموع درجات تلاميذ السنة الدراسية الواحدة على عدد أفراد الفصول الدراسية لهذه السنة ، سواء أكانوا بنين أم بنات :

وبدل الجدول (٢) على نتائج حساب هذه المتوسطات : وبما أن الاختبار أجري في بدء النصف الثاني من العام الدراسي ، اذن فتلاميذ السنة الدراسية الأولى قد مضى عليهم في المدرسة ٥ و ٠ سنة عند تطبيق الاختبار ، وتلاميذ السنة الدراسية الثانية قد مضى عليهم ٥ و ١ سنة عند تطبيق الاختبار . وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية الأخرى :

متوسط الكلمات الصحيحة في الدقيقة الواحدة	متوسط الاجابات الصحيحة	السنة الدراسية
	ص	س
١,٢٦	٣٥,٢٣	٠,٥
١,٩٤	٥٤,٤٤	١,٥
٣,٤٤	٩٦,٢٤	٢,٥
٤,٥٤	١٢٧,٣١	٣,٥

جدول (٢) المتوسطات التجريبية للاجابات الصحيحة في المرحلة الابتدائية

وبذلك نستطيع أن نفسر نتائج هذا الجدول على أن متوسط المحصول اللفظي للتلاميذ الذين قضوا في المدرسة الابتدائية ٥ و ٠ سنة هو ٢٣ و ٣٥ كلمة عربية صحيحة ، ومتوسط المحصول اللفظي للتلاميذ الذين قضوا في المدرسة الابتدائية ٥ و ١ سنة هو ٤٤ و ٥٤ كلمة عربية صحيحة ، وهكذا بالنسبة لمتوسطات السنوات الدراسية الأخرى التالية . ونستطيع ايضا أن نرى أن متوسط

الكلمات - الصحيحة في الدقيقة الواحدة هو ٥ و ٠ سنة دراسية ، و ٩٤ و ١ في ٥ و ١ سنة دراسية ، وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية الأخرى :

فاذا رمزنا للسنوات بالزمن (س) ولمتوسطات الاجابات الصحيحة بالرمز (ص) فاننا نستطيع أن نرصد نتائج هذه التجربة في رسم بياني يوضح العلاقة بين (س ، ص) : وبما أن هذه العلاقة تقترب

جدا من الخط المستقيم ، اذن يمكن ان نحسب الخط المستقيم الذى يمثل هذه العلاقة . وقد دلت نتائج هذا التحليل على أن معادلة الخط المستقيم التى تمثل هذه العلاقة هى :
ص = ٨٠ و ٣١ س + ٧١ و ١٤

وهكذا نستطيع - عن طريق هذه المعادلة أن نستنتج متوسطات الاجابات الصحيحة لجميع السنوات الدراسية فى المرحلة الابتدائية كما يدل على ذلك الجدول (٣) . وهكذا

نرى إن المتوسط النظرى للاجابات الصحيحة لتلميذ السنة الرابعة الابتدائية هو ٩١ و ١٤١ ، وأن المتوسط النظرى للطفل عند التحاقه بالمدرسة الابتدائية هو ٧١ و ١٤ كلمة ، وهكذا بالنسبة للسنوات المختلفة ، وأن متوسط الكلمات الصحيحة فى الدقيقة يساوى ٦٦ و ١ فى ٥ و ٠ سنة دراسية ، ويساوى ٠٩ و ١ فى السنة الأولى الدواسية ، وهكذا بالنسبة للسنوات الأخرى .

متوسط الكلمات الصحيحة فى الدقيقة الواحدة	متوسط الاجابات الصحيحة	السنة الدراسية
	ص	س
٠,٥٣	١٤,٧١	صفر
١,٠٩	٣٠,٦١	٠,٥
١,٦٦	٤٦,٥١	١,٠
٢,٢٣	٦٢,٤١	١,٥
٢,٧٦	٧٧,٣١	٢,٠
٣,٣٦	٩٤,٢١	٢,٥
٣,٩٣	١١٠,١١	٣,٠
٤, ٩	١٢٦,٠١	٣,٥
٥,٠٧	١٤١,٩١	٤,٠

جدول (٣) المتوسطات النظرية للاجابات الصحيحة فى المرحلة لابتدائية

متوسطات السرعة الكتابية فى المرحلة الابتدائية :

حسبت متوسطات السرعة الكتابية لجميع السنوات الدراسية لمرحلة التعليم الابتدائى ،

وذلك بقسمة المجموع الكلى لكلمات المحصول واللفظى الصحيحة والخاطئة لكل سنة دراسية على عدد تلاميذ تلك السنة كما يدل على ذلك الجدول (٤) ، وهكذا نرى أن متوسط

السرعة الكتابية للنصف الأول من السنة الأولى الدراسية هو ٥١,٢١ كلمة ، وأن معدل السرعة الكتابية في الدقيقة الواحدة هو ١٨٣ كلمة ، وهكذا بالنسبة للسنوات الدراسية كلمة ، ومعدل السرعة الكتابية لهذه السنة الدراسية هو ٥,٨٠

السنوات الدراسية	متوسط السرعة الكتابية	معدل السرعة الكتابية في الدقيقة الواحدة
س	ص	
٠,٥	٥١,٢١	١,٨٣
١,٥	١٠٠,٥٤	٣,٥٩
٢,٥	١٣٩,٤٥	٤,٩٨
٣,٥	١٦٢,٥٣	٥,٨٠

جدول (٤) متوسطات ومعدلات السرعة الكتابية في المرحلة الابتدائية

هذه السنة الدراسية ، وهكذا بالنسبة لبقية السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية:

حسبت متوسطات السرعة الكتابية لجميع مستويات مرحلة مكافئة الأمية بنفس الطريقة التي حسبت بها هذه السرعة لمرحلة التعليم الابتدائي .

تحليل نتائج الصعوبة للكلمات الصحيحة :

حسبت متوسطات الكلمات الصحيحة لكل حرف هجائي تبدأ به كل كلمة كتبها التلاميذ ، ثم رتبنا هذه الكلمات بالنسبة لحرفها الأول ترتيبا تنازليا تبعا لسهولة ،

هذا وعندما رصدنا هذه النتائج في رسم بياني يوضح العلاقة بين (س ، ص) ظهر أن هذه العلاقات تقترب جدا من الخط المستقيم ، ولذلك فقد حسبت معادلة هذا الخط وقد دلت نتائج هذا التحليل على أن معادلة الخط المستقيم هي :

$$ص = ٣٧,٢٩ + ٣٨,٨٥$$

وهكذا نستطيع عن طريق هذه المعادلة ، أن نحسب متوسطات السرعة لجميع السنوات الدراسية للمرحلة الابتدائية كما يدل على ذلك الجدول (٥) حيث نرى أن متوسط السرعة الكتابية يساوي ٥٠ و ٥٧ في السنة الدراسية ٥,٠ ، وأن معدل السرعة الكتابية في الدقيقة الواحدة هو ٢,٠٥ كلمة لنفس

وتصاغديا وفقا لصعوبتها ، واصطلح على الرقم (٢٨) يدل على أصعب كلمة ، كما أن الرقم (١) يدل على اسهل كلمة ، يوضح ذلك الجدول رقم (٦) :

السنة الدراسية	متوسط السرعة الكتابية	معدل السرعة الكتابية في الدقيقة الواحدة
س	ص	
صفر	٣٨,٨٥	١,٣٩
٠,٥	٥٧,٥٠	٢,٠٥
١,٠	٧٦,١٤	٢,٧٢
١,٥	٩٤,٧٩	٣,٣٨
٢,٠	١١٣,٤٣	٤,٠٥
٢,٥	١٣٢,٠٨	٤,٧٢
٣,٠	١٥٠,٧٢	٥,٣٧
٣,٥	١٦٩,٣٧	٦,٠٥
٤,٠	١٨٨,٠١	٦,١٢

جدول (٥) متوسطات ومعدلات السرعة الكتابية في المرحلة الابتدائية كمدل عاليا معادلة التناط الما تنقيم

الترتيب النسبي للمعوبة من السهل الى الصعب	ترتيب الصعوبة في سنوات المرحلة الابتدائية					الحروف المعجائية
	المتوسط	٤	٣	٢	١	
١٠	٩,٧٥	٦	١٤	١٨	١	أ
١٦	١٥,٥٠	٢٢	٢٣	١٢	٥	ب
١٩	١٨,٥٠	١٢	٢٠	٢٣	١٩	ت
٢٥	٢٤,٧٥	٢٤	٢٦	٢٥	٢٤	ث
٧	٨,٠٠	٨	٥	٥	١٤	ج
٥	٧,٢٥	٧	١٠	١٠	٢	ح
١٩	١٨,٥٠	٢	١٩	١٥	٢	خ
١١	١٠,٥٠	١٧	١٢	٧	٦	د
٢٦	٢٥,٢٥	٢٧	٢٧	٢٤	٢٣	ذ
١٤	١٤,٥٠	١٦	١٧	١٤	١١	ر
٢٤	٢١,٥٠	١٩	٢١	١٩	٢٧	ز
٥	٧,٢٥	١	٦	١	٢١	س
٨	٨,٧٥	٥	٩	٦	١٥	ش
١٨	١٧,٢٥	١٣	١٨	١٣	٢٦	ص
٢٧	٢٥,٧٥	٢٣	٢٥	٢٧	٢٨	ض
١٧	١٦,٥٠	١٤	١٥	١٦	٢١	ط
٢٨	٢٧,٢٥	٢٨	٢٨	٢٨	٢٥	ظ
٤	٥,٧٥	٣	٢	٨	١٠	ع
٢١	١٨,٨٥	٢١	١٦	٢٢	١٦	غ
٩	٩,٠٠	٩	٧	٨	١٢	ف
٣	٥,٥٠	١٥	١	٢	٤	ق
١٢	١٣,٠٠	١٨	٨	١٧	٩	ك
٢٢	٢٠,٢٥	٢٥	٢٢	٢١	١٣	ل
١	٢,٧٥	٤	٤	٤	٣	م
١	٣,٧٥	٢	٣	٢	٧	ن
١٢	١٣,٠٠	١١	١٣	١١	١٧	هـ
٢٣	٢١,٠٠	٢٦	٢٤	٢٦	٨	و
١٥	١٤,٧٥	١٠	١١	٢٠	١٨	ي

جدول رقم (٦) ترتيب الكلمات الصحيحة تبعاً لزيادة صعوبتها وذلك بالنسبة للحرف المعجائي، الاول في الكلمة

وهكذا نرى أن أسهل خمسة حروف تبدأ بها الكلمات في المرحلة الابتدائية هي كما يلي مرتبة من السهل إلى الصعب :

م - ن - ق - ع - س -

وأصعب خمسة حروف تبدأ بها الكلمات هي كما يلي مرتبة من الصعب إلى السهل :

ظ - ض - ذ - ث - ز -

رعاية المحصول اللفظي للطفل :

تتطلب عملية الرعاية معرفة المستوى الواقعي للمحصول اللفظي والمستوى المتوقع ثم تنمية المستوى الواقعي حتى يصل إلى المستوى المتوقع :

ويقاس المستوى الواقعي للمحصول اللفظي العام والفرعي ، باختبار المحصول اللفظي ، ولا يتطلب هذا الاختبار من الطفل أكثر من أن يكتب جميع الكلمات التي يعرفها ، وتبدأ بحرف معين من حروف الهجاء في مدى زمني يساوي تماماً دقيقة واحدة ، وهكذا بالنسبة لبقية الحروف الأخرى ، ويمكن معرفة عدد الكلمات التي يعرفها الطفل والتي يكتبها في ٢٨ دقيقة :

ويقاس المستوى المتوقع للمحصول اللفظي العام والنوعي باختبار المحصول

اللفظي وذلك عن طريق تطبيقه على تلاميذ السنة الدراسية التي ينتمى لها الطفل ، ثم حساب متوسط إجابة تلاميذ هذه السنة ، ومقارنة المحصول اللفظي للطفل بمستوى المحصول اللفظي لفرقة الدراسية .

وبذلك يمكن معرفة مستوى الطفل بالنسبة لمستوى فرقته .

ومستوى الطفل إما أن يكون أقل من مستوى فرقته فيحتاج عندئذ إلى تدريب وقراءة حتى يصل إلى مستوى فرقته :

وإما أن يساوي مستوى فرقته أو يزيد عليه ، وبذلك يستقيم محصوله اللفظي ولا يشير إلى التخلف الذي نخشاه .

والقراءة هي علاج لتخلف مستوى المحصول اللفظي عن المستوى العادي .

ويمكن أن يقاس المحصول اللفظي على فترات متعاقبة ، وتقارن نتيجة كل قياس بالتي تسبقها حتى يعرف الأثر النسبي للبرنامج القرائي المتبع في زيادة ذلك المحصول .

وللمحصول اللفظي أهميته القصوى في القدرة على التعبير ، والقدرة على معرفة المادة القرائية .

الدكتور فؤاد البهي السيد

الصَّغَانِي

للكَوتُوبِيِّينَ عَلَى مَحْفُوظٍ

٥٧٧ - ٦٥٠ هـ

اسمه ونسبه ولقبه :

مجل سيرة :

هو ، رضى الدين أبو الفضائل الحسن ابن أبي السعادات محمد بن أبي الفضل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي بن إسماعيل ، العمرى ، العدوى ، القرشى ، اللاهورى ، الصغاني ، اللغوى القرشى ، اللاهورى ، الصغاني ، اللغوى الأديب ، المحدث ، النحوى الفقيه ، الحنفى .

نشأ بغزنة ، ورحل فى طلب الحديث والعلم ، ودخل اليمن ، وورد إلى عدن سنة ٦١٠ هـ ، وحج ، وجاور مكة ، وكان بها سنة ٦٢٣ . وقدم بغداد سنة ٦١٥ ، وبعثه الخليفة الناصر رسولا إلى ملك الهند ، سنة ٦١٧ هـ . ورجع منها سنة ٦٢٤ ، وعاد إلى بغداد - بعد مدة طويلة وأرسله المستنصرين لله - أيضا - إلى ملكة الهند . ثم رجع إلى بغداد سنة ٦٣٧ هـ .

ولادته ووفاته وقبره :

ولد فى لاهور ، يوم الخميس ١٠ من صفر سنة ٥٧٧ هـ = ٢٥ من حزيران سنة ١١٨١ م ، وتوفى - فجأة - ببغداد ، ليلة الجمعة ١٩ من شعبان ، سنة ٦٥٠ هـ = ٢٥ من تشرين الأول سنة ١٢٥٢ م ، عن ٧٣ سنة .

سمع بكة ، وعدن ، والهند ، وبغداد ، وقرأ الناس عليه ، وانتفعوا بعلمه الجيم . وجعله المستنصر شيخ رباط المربانية الذى بناه الخليفة الناصر لأهل النصوص فى قرية المربانية على نهر عيسى ، بالجانب الغربى . كما كان مدرس المدرسة التنشئة الحنفية ببغداد .

وتولى أصحاب الوزير ابن العلقمى تجهيزه ودفنه ، فقبر فى داره بالحريم الطاهرى فى الجانب الغربى .

وقربه الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى ، واختصه لتعليم ولده عز الدين محمد . وألحقه قاضى القضاة أعز الدين أبو العباس أحمد بن محمود الزنجاني بالمعدلين .

ثم نقل إلى مكة ، ودفن جوار الفضل ابن عياض ، كما أوصى .

أساتذته وشيوخه :

- لاقي الصغاني أفاضل الشيوخ ، ومنهم :
 ١ - أبو الفتوح بن الحصري ، بكة .
 ٢ - سعيد بن الرزاز ، ببغداد
 ٣ - القاضي سعد الدين خاف بن محمد ،
 الحسنابادي .

- ٤ - والده : أبو السعادات محمد بن
 أبي الفضل الحسن بن محمد بن الحسن بن
 حيدر بن علي بن إسماعيل القرشي ، ببلهور .
 ٥ - النظام محمد بن الحسن ، المرغيناني .

تلاميذه والرواة عنه :

قرأ الناس عليه ببغداد - وانتفعوا به
 وكان يقرأ عليه - بعدن - كتاب « معالم
 السنن » للخطابي .

وقد قرأ عليه ، وسمع منه ، وروى
 عنه ، جماعة من الأفاضل والأعيان ، منهم :

- ١ - السيد ، جمال الدين ، أبو الفضائل
 أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن
 طاووس ، الحسيني ، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ
 أجاز له جميع مسموعاته ومؤلفاته ومنشأته .
 ٢ - أبو العز ، أسد البغدادى ، بن
 إسكندر بن محمد بن نصر بن محمود ،
 الشرواني .

- ٣ - العلامة الحلبي ، جمال الدين ،
 أبو منصور ، الحسن بن يوسف بن المطهر ،

الحلي ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ . روى عنه
 كتاب « التكملة والذيل والصلاة » . وإليه
 ينتهي سند الفيروزابادي - صاحب القاموس
 المحيط - في رواية هذا الكتاب . ولاريب
 أنه أجاز له في طفولته .

- ٤ - قاضي القضاة ، تقي الدين ،
 أبو الفضل ، سليمان بن حمزة ، المقدسي :

٥ - محيي الدين ، أبو التقي ، صالح بن
 عبد الله بن جعفر بن علي بن صالح ،
 الأسدي ، الكوفي ، الفقيه ، النحوي ، المعروف
 بابن الصباغ . روى عنه إجازة ٦٥٠ هـ .

٦ - موفق الدين ، أبو محمد ، عبد
 القاهر بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز
 النمطي ، البغدادي ، الأديب ، المقتول - في واقعة
 التتار - سنة ٦٥٦ هـ . قرأ عليه الأدب .

٧ - السيد ، غياث الدين ، أبو المظفر
 عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن جعفر
 ابن محمد بن طاووس ، الحسيني ، المتوفى
 سنة ٦٩٣ هـ . أجاز له - طفلا - جميع
 مسموعاته ومؤلفاته ومنشأته - في إجازة
 أبيه السيد جمال الدين بن طاووس .

٨ - الحافظ ، شرف الدين ، أبو محمد
 عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف
 ابن الخضر بن موسى ، الدمياطي ، الشافعي
 المتوفى سنة ٧٠٥ هـ . سمع منه ببغداد .

٩- العلامة ، كمال الدين ، أبو الحسن ،
علي بن محمد بن محمد بن محمد بن وضاح
أبن أسعد محمد بن وضاح ، الشهرآباني
الحنبلأ ، الفقيه ، النحوى ، الكاتب ،
نزأل بغداد ، المتوفأ سنة ٦٧٣ هـ .

١٠- ابنه ، الضياء ، أبو البركات ،
محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن
حيدر بن على بن إسماعيل ، الصغانأ .
قرأ عليه كتاب « العباب » سنة ٦٤٩ هـ .

١١- الوزير عز الدين أبو الفضل ،
محمد بن الوزير مؤيد الدين محمد بن أحمد ،
ابن العلقمأ ، الأسدأ : قرأ عليه أكثر
دواوين العرب . وكان الصغانأ أأردد
إلى دار والده الوزير يعلمه .

١٢- الشيخ برهان الدين ، محمود
ابن أبي الخير أسعد ، البلخأ ، شارح
كتاب « آثار النأرين فى أخبار الصأحيأين »
فى الحديث .

١٣- نظام الدين محمود بن عمر ، الهروأ .

آثاره :

عددت المصادر تأليفه . وقد بلغت ٩٠
كتاباً ورسالة ، كل الظن أنها نحو ٥٠
زادت بالتصأحأف ، والتأحرأف ،
والتأغير ، والتأكرأر .

وهذه أسماؤها مجموعة ، كما جاءت
فى مختلف كتب التأرجم :

١- الأثر ٥

٢- الأحكام ، فى فقه الحنفأفة :

٣- أسامأ شأوخ البخارأ .

٤- الأسماء .

٥- أسماء الأسد .

٦- أسماء الدين .

٧- أسماء الذأب وكناه .

٨- أسماء السعادة .

٩- أسماء العادة .

١٠- أسماء الغادة فى أسماء العادة .

١١- أسماء القارة .

١٢- أسماء القارة .

١٣- أسماء القارة .

١٤- أفعل فعلا .

١٥- بغة الصأدان .

١٦- بقعة الصأدان

١٧- أأان الأحادأث الموضوعة .

١٨- التأذكرة الفأخرة .

١٩- تأعزأر أأأأ أأأأ .

٢٠- تأقرأر منأأأ أأأأ .

٢١- تأكملة العزأزأ ، فى الأدب :

٢٢- التأكملة على الصأأأ ، فى ٦

مألدات أأأأ ، ذكر فىها ما فات أأأأأأ
من اللغة : وهأ أكبر أأأأ من الصأأأ :

٢٣- التأكملة والأأأ والصلة :

٢٤- تأوشأأ الأأأأفة :

٤٢ - الشمس المنيرة من الصحاح المأثورة
في الحديث :

٤٣ - الشوارد في اللغات .

٤٤ - ضوء الشهاب ؛ للقضاعي .

٤٥ - العباب الزاهر واللباب الفاخر :

٤٦ - القلائد السمطية في توشيح الدريدية .

٤٧ - القلائد السمطية في شرح الدريدية .

٤٨ - كتاب الأسفار :

٤٩ - كتاب الأسماء :

٥٠ - كتاب الأضداد :

٥١ - كتاب الأصفار :

٥٢ - كتاب الأضداد :

٥٣ - كتاب الافتعال :

٥٤ - كتاب افتعل :

٥٥ - كتاب الأفعال :

٥٦ - كتاب الانفعال :

٥٧ - كتاب انفعل :

٥٨ - كتاب التراكيب :

٥٩ - كتاب خلق الإنسان :

٦٠ - كتاب السالكين :

٦١ - كتاب السحابة في وفيات الصحابة .

٦٢ - كتاب الضعفاء :

٦٣ - كتاب العادات :

٦٤ - كتاب العروض :

٦٥ - كتاب الفرائض :

٢٥ - حاشية ذيل الصحاح في اللغة
من تأليفه المسمى بالتكملة وصلته . أفردتها
تسهيلاً على الطالب وتيسيراً على الراغب .

٢٦ - درّ السحابة في بيان مواضع
وفيات الصحابة :

٢٧ - درّ السحابة في معرفة صفات
الصحابة :

٢٨ - در السحابة في وفيات الصحابة .

٢٩ - الدر الملتقط في تبين الغلط .
ذكر فيه ما في كتابي الشهاب والنجم ،
من الموضوع :

٣٠ - الدرر الملتقطة ، في بيان الأحاديث
الموضوعة :

٣١ - ذيل العزيزي :

٣٢ - رسالة في الأحاديث الموضوعات .

٣٣ - رسالة في الأحاديث الموضوعات .

٣٤ - رسالة أخرى في الأحاديث الموضوعات .

٣٥ - رسالة في الأحاديث الواردة في
صدر التفاسير ، في فضائل القرآن ، وغيرها :

٣٦ - رسالة في الموضوعات من الأحاديث .

٣٧ - شرح أبيات المفصل :

٣٨ - شرح الأخبار المولوية والآثار المرضية .

٣٩ - شرح أسباب المفصل :

٤٠ - شرح القلادة السمطية في توشيح

المقصورة الدريدية :

٤١ - شرح مقصورة ابن دريد :

٦٦ - كتاب فعال ؛ على وزن ختدام
وقطام ، فيما بنته العرب على لفظ فعال على
حروف المعجم .

٦٧ - كتاب فعالان ؛ على وزن سيان .

٦٨ - كتاب فعول .

٦٩ - كتاب في التصريف .

٧٠ - كتاب في علم الحديث .

٧١ - كتاب في نواذر اللغة .

٧٢ - كتاب المفعول .

٧٣ - كتاب يفعول .

٧٤ - كشف الحجاب عن أحاديث
الشهاب .

٧٥ - ما أهمله إلى الجوهري من لغة .

٧٦ - ما تفرد به بعض أئمة اللغة .

٧٧ - مجمع البحرين في الجمع بين أحاديث
الصحيحين ؛ في الحديث .

٧٨ - مجمع البحرين في اللغة ، في
١٢ مجلدًا .

٧٩ - مختصر العروض .

٨٠ - مختصر الوفيات .

٨١ - مشارق الأنوار في الجمع بين
الصحيحين .

٨٢ - مشارق الأنوار النبوية من صحاح
الأخبار المصطفوية .

٨٣ - مصباح الدجى في حديث المصطفى .

٨٤ - مصباح الدجى في صحاح حديث
المصطفى .

٨٥ - مصباح الدعاء .

٨٦ - مصباح الدياجى .

٨٧ - مناسك الحج .

٨٨ - نظم عدد آي القرآن .

٨٩ - نقعة الصديان فيما جاء على وزن
فعالان .

٩٠ - النكت الأدبية .

مكانة كتبه :

يعد الصغاني من أئمة اللغة ، ومن أعلام
المصنفين في فنونها ، عد عن آثاره الأخرى
في علوم الحديث ، والقرآن ، والأدب
والعروض ، والتصريف ، والفرائض ،
والفقه ، والتاريخ .

ومعجماه الكبيران «التكملة» ، و«العياب»
هما خير ما ترك في اللغة من آثار .
أما كتاب «التكملة والذيل والصلة» ،
فقد ألفه في ست مجلدات - بعد أن بلغ
الكبر ، وبعد أن أحاط بما جمع من كتب
اللغة - وقد جمع فيه ما أهمله الجوهري
في كتابه «الصحيح» ، وذيّل عليه .

واستخرج لغاته من أصول أربت على
ألف مصدر ؛ من كتب اللغة ، والنحو
وغرائب الحديث ، ودواوين الشعراء ،
وأراجيز الرجاز ، والكتب المصنفة في
المذكر والمؤنث ، والآباء والأمهات والبنين
والبنات ، والأضداد والنبات والأشجار

وما اتفق لفظه وافترق معناه ، وما صنف
في أسامى الجبال والمواضع والبقاع والأصقاع .
وقد أحصى فيه ٩٨ كتاباً من أمهات
المراجع في الأدب واللغة والشعر ، حفظ
أسماءها ، ونسبها إلى مؤلفيها ؛ مما
يفيد في الفهرسة ، وتاريخ الثقافة ، وتدوين
التراث . وفي التكملة هذه - من مادة تلك
الكتب التي ضاع كثير منها - ما قد يسلينا
من الهم والحزن على ضياع ما فقد من ذخائرها .

وأما كتاب «العباب الزاخر واللباب
الفاخر» فقد ألفه للوزير الفاضل ابن العلقمي ؛
إذا أوعز إليه أن يؤلف كتاباً في لغة العرب ؛
يكون جامعاً لشتاتها وشواردها ، حاوياً
مشاهير لغاتها وأوابدها ، مشتملاً على كل
التراكيب المستعملة . فقد جمع فيه ما تفرق
في كتب اللغة المشهورة ، وما بلغه مما جمعه
علماء اللغة ، والقدماء الذين شافهوا العرب
وساكنوهم وسايروهم ، ومن بعدهم من
أدرك زمانهم .

وقد أتى فيه على عامة ما نطقت به العرب
من المستعمل والنادر ، مستشهداً على صحة ذلك
بالآيات ، والأحاديث ، والأشعار والأمثال .

وذكر أسامى خيل العرب ، وفرسانها ، وشعراتها
وبقاعها ، وأصقاعها ، وبرقها ، وداراتها .

وقد أتى بالأشعار معزوة إلى قائلها بعد
أن راجع دواوينهم ، واعتماد أصح الروايات
واختار أقوال الثقات .

والكتاب في ٢٠ مجلداً ، وصل فيها إلى
مادة «بكم» . وقد صدره بفصلين :
الفصل الأول - في أسامى جماعة من
أهل اللغة .

والفصل الثاني : في أسامى كتب حوى
معجمه لغاتها .

وقد أحصى في مقدمته ١٠١ كتاب من
أمهات المراجع ، حفظ - أيضاً - أسماءها
ونص على نسبتها إلى مصنفها . وتعد هذه
المدونة القيمة - على اقتضاها - من فهارس
التراث المفيدة ، التي تؤرخ الآثار الباقية
في زمانه مما ضاع بعضه ، عدّما أحاط به
العباب من مادتها اللغوية والأدبية التي فقدت
المكتبة العربية نفائس أصولها .

مراجع الترجمة :

١ - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

٢ - الأعلام .

٣ - إيضاح المكنون .

٤ - بروكلمن .

٥ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين
والنحاة .

٦ - تاج التراجم في طبقات الحنفية .

٧ - تاج العروس .

٨ - تاريخ آداب اللغة العربية .

٩ - تكملة بروكلمن .

١١- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب .

١١- الجاسوس على القاموس .

١٢- الجواهر المضية في طبقات الحية .

١٣- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة .

١٤- دول الإسلام .

١٥- رجال السند والهند في القرن السابع .

١٦- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات .

١٧- ریحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية أو اللقب .

١٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

١٩- فوات الوفيات .

٢٠- قاموس الأعلام .

٢١- القاموس المحيط .

٢٢- كشف الظنون .

٢٣- الكنى والألقاب .

٢٤- مجلة ثقافة الهند .

٢٥- مجلة العربى .

٢٦- مجلة المجمع العلمى العربى .

٢٧- مرآة الجنان وعبرة اليقظان .

٢٨- المزهر .

٢٩- معجم الأدباء .

٣٠- معجم المؤلفين .

٣١- مفتاح السعادة ومصباح السيادة .

٣٢- مقدمة التكملة والذيل والصلة .

٣٣- منتخب المختار .

٣٤- نامه دانشوران ناصرى .

٣٥- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر .

٣٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

٣٧- هدية الأحباب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب .

٣٨- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين .

٣٩- الوافى بالوفيات .

حسين على محفوظ

عضو المجمع المراسل من العراق

سيبويه

إمام النحو وأدبه

دراستاز على أصفهلي

شعرية أقدمها لأعتاب العلماء والأدباء .
فنظمت هذه القطعة المتضمنة للخطوط
العريضة لحياة عالمنا الإمام النحوي والأديب
الأريب ومنزلته العلمية العظيمة ، وهذه
ترجمتها باللغة العربية :

(سيبويه إمام النحو وأدبه)

كان كالتفاح عمرو بن عثمان
فلا مندوحة إذًا أن يلقب بسيبويه
قد عاش منذ اثني عشر قرنًا
وكان عصره هو العصر الذهبي
مولده ببغداد في فارس
وورث عن إيران أصله ونسبه
أصبحت البصرة من ين نشأته (تربيته)
مدرسة علم ، وما أروعها من مدرسة
كتابه « الكتاب » خزانة أدب
وقد شملت صروح اللغة العربية به
أستاذه الخليل بن أحمد
فلا تعجب إن وجه أعذب المديح إليه
وإن الأخفشين الكبير والصغير
يقفان متأدبين بجواره
وكان الكسائي على أعتابه
تلمذ شفيته أعتابه بأدب
كلامه كأعطاف الورد
وحديثه سواء كالشوك والخشب

تصادف هذه السنة

(١٣٩٤ هـ ق = ١٣٥٣)

تصادف

هـ ش) الذكرى المائة الثانية عشرة للذكرى
أحد أئمة الأدب وأساطين النحو العربي ،
أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب
بسيبويه ، وبمناسبة إقامة مهرجان تخليداً للذكرى
هذا العبقري الفارسي من قبل جامعة بهلوي
بشيراز قمت أبحث بعد سير أحواله ودراسة
أخباره عن مادة تاريخية لعام وفاته ، كما
هو المتداول والمتعارف في أوساط الأدباء .

وبعد ذلك وجدت أن جملة (إمام النحو
وأدبه) التي يستخرج منها بحساب الجُمَّل الرقم
(١٩٥) مناسبة لسنة وفاة عالمنا الخليل (١)
وبما أن وفاته كانت عام (١٩٤ هـ ق)
على أصبح الأقوال فلننا نطرح رقماً واحداً
من الجمع فيحصل لدينا عام (١٩٤ هـ ق)
وقد أحسست بشوق إلى نظمها في صورة قطعة

(١) حسن فسائي ذكر تاريخ وفاة سيبويه في كتابه الكبير ، فارسنامه ١٩٥ هـ ، ج ١ ص ١٣ طبعة طهران .

ناهر الأربعين من عمره
تألاً كوكبا ساطعا في سماء الأدب
إذا قصدت مرقده كما تقصد الكعبة
فاطلبه في شيراز عند الحجر الأسود
طلبت يوماً من الله تعالى
مدداً ، لتاريخ وفساته
فخرج على من الجمع واحد
يقول لي بالشعر أرث «إمام النحو وأدبه»
أربع وتسعون ومائة
عام وفاته إن أردت معرفته

نظم «حكمت» هذه القطعة تكريماً
وتعظيماً له، فأتت أحلى من السكر والرطب.

طهران ١٧ صفر ١٣٩٤

ولما كانت الإشارات الواردة في هذه
القطعة تعوزها بعض التنبيهات فلأنني أشير
إليها وأشرحها خلال هذه المقالة .

(١)

إن جل المؤرخين فسّروا اسم الإمام
(سيبويه) الفارسي بـ (رائحة التفاح) وبعضهم
زعموا أن خديّه كانا تشبهان التفاح في
النضارة والجمال .^(١)

ورأي أنا أن كلمة «سيب» وحدها
كانت أسما له بالفارسية ، لأن سكان فارس

(جنوب إيران) في لهجتهم الدارجة ينطقون
الأعلام بصورة عامة بإشباع الضمة على
شكل واو مضمومة ، فأخذوا يدعونه في
بلده بـ «سيبُو» ومن ناحية أخرى فإن مثل
هذه الأسماء الأعلام حينما تعرب يضاف
إليها حرفا «الياء والهاء» ويفتحان عند النطق:

وهذه التسمية العربية لم تكن منحصرة
في الأسماء الفارسية فحسب ، بل إن إلحاق
«ويه» كانت متداولة في العالم العربي أيضاً
مثل ، نبطويه وخالويه وقولويه ، وغيرها
من الأسماء المعروفة :

ومن هذا القبيل إلحاق «ويه» بالأعلام
الفارسية؛ فهو ما زال موجوداً ومستعملاً حتى
اليوم في جنوب إيران ، والكل ينطقونها
بلهجتهم الدارجة بإشباع الضمة بدون تلك
اللاحقة ، وقد حفظت لنا السجلات القديمة
كلمة «ويه» في مثل الكلمات : «كوه
كيلو» المنطقة المعروفة ، وتعريبها «كوه
كيلويه» وقرية «مهارلو» المعربة في
المخطوطات القديمة بـ «مهارلويه» (وهي
قرية على بعد أربعين كيلو متراً في الناحية
الشرقية من شيراز) وكذلك ميناء «عسلو»
التي جاءت في المخطوطات الرسمية «عسلويه»:
وهكذا لقب الأمير علاء الدولة الديلمي
بـالفارسية «كاكو» = خال» وعربت

(١) مقدمة «الكتب» طبعة بيروت ١٣٨٧ هـ . ق. شد الإزار في حط الأوزار عن زورا المزار . «أبو القاسم

جنيّد شيرازي» (قرن ٧) ص ٩٦ ط طهران ١٣٢٨ هـ . ش وفيات الأعيان ، ابن خلكان .

هذه الكلمة : « كاكويه » . والسلالة التاريخية للملوك الديلمية الذين اشتهروا بأسرة « بويه » (بفتح الواو ، باللغة العربية ، والأصح سكونها) .

(٢)

كما أسلفنا ، أن ميلاد عمرو بن عثمان ؛ سيديويه وحياته ونشأته كانت في القرن الثاني للهجرة ، وأن عمره كله انقضى في هذا القرن . ولاشك أن القرن الثاني ليعتبر في تاريخ إيران الإسلامي قرناً مباركاً وكان يعد القرن الذهبي للثقافة الإيرانية الإسلامية ، حيث تمكن الإيرانيون بقوة ذكائهم وأصالة ثقافتهم ، وبلوغهم الذاتي ، أن يتملكوا الزعامة الفكرية والمادية في مجالات العلم والفن والسياسة في منطقة الشرق الأوسط . وأصبحت الشريعة الإسلامية تنتشر انتشاراً منقطع النظير في الأقاليم والأوساط الإيرانية ، وترعى تحت ظلالها المذهب الجعفري . وبذلك أصبحت لغة الإيرانيين مزيجاً من اللغة العربية الحجازية ومن الفارسية الفهلوية . ومن مميزات هذا القرن أيضاً ، ظهور أبي مسلم الخراساني (المقتول ١٣٧ هـ) وثورته القاضية على الحكم الأموي الغاصب وإرساؤه قواعد الخلافة العباسية (١٣٢ هـ مقتل مروان الأموي) .

ففي أواخر هذا القرن أيضاً قضى الأمير الطاهر ذو اليمينين (قيل إنه من أحفاد رام جويينه) على محمد الأمين ، ونصب

أخاه المأمون (الذي كانت أمه إيرانية) على الخلافة . والطاهر كثر أول أسرة ملكية إقليمية إيرانية في خراسان وما وراء النهر تدعى بالطاهريين (توفي ٢٠٧ هـ بمرو)

وفي هذا القرن كان وزراء وحكام إيرانيون يديرون شؤون الدولة الإسلامية المترامية الأرجاء باسم خليفة بغداد من أمثال يحيى وجعفر والفضل البرمكيين (المقتول ١٩٣ هـ ق) والفضل بن الربيع السرخسي (توفي بطوس ٢٠٨ هـ ق) .

وقد ظهر أيضاً في القرن الثاني عباقرة وعلماء وشعراء ، من مثل عبد الله بن المقفع (المقتول بالبصرة ١٤٣ هـ ق) والذي ترجم كتاب كلىة ودمنة من اللغة البهلوية إلى العربية ، والف كتباً أخرى ، وهكذا نرى في هذا القرن شاعراً كبيراً مثل بشار بن برد (١٦٧ هـ ق) وأبا نواس (١٩٨ هـ ق) ومسلم بن الوليد (المتوفى بجرجان ٢٠٨ هـ ق) ، الذين دوت أشعارهم وقصائدهم في أرجاء العالم الإسلامي رقام هؤلاء الكبار الذين ينتمون إلى أصل فارسي بهنضة عظيمة مدوية في الشعر العربي وأدبه .

(٣)

أجمع المؤرخون على أن مولد سيديويه كان في ناحية « بيضاء » في ولاية فارس ، وتقع هذه الناحية في شمال غربي شيراز ، على بعد ٤٢ كيلو متراً ، ومركز هذه الناحية يسمى

الآن « تل بيضا » (١) وأغلب الظن أن هذه القرية المركزية كانت مولد سيديويه الإيراني نسباً وعنصراً : كان جده الأعلى اسمه « قنبر »، والظاهر أن هذه الكاشية إيرانية .

وفي قرية بيضاء ولد كثير من العلماء والشخصيات المعروفة من المتقدمين من مثل : حسين بن منصور الحلاج (المقتول ٣٠٦ هـ) وهو من كبار علماء التصوف والعرفان، وقصته معروفة . ومن هناك أيضاً القاضي ناصر الدين أبو سعيد المعروف بالقاضي البضاوي (المتوفى في تبريز - ٦٩٥ هـ ق) وهو مشاهير الأدب والفقه والتاريخ والتفسير : ولا بأس في أن نشير هنا إلى أن محل « تل بيضاء » الحالية والقرية المجاورة لها المسماة بـ « ملين » هي محل المدينة الأثرية القديمة « آنشان . أو - أنزان » Aushan التي كانت في أواخر الألف الثاني وأواسط الألف الأول، مدينة عظيمة عامرة ومركزاً لمحافظة « بارسوا Parsual فارس قبل حكم الأخمينيين Achemenians في عصر العيلاميين Elamites الذين كان لهم حضارة وحظ في جنوب إيران . وكانوا معاصرين للأشوريين وقد حكموا في جنوب إيران وجنوب العراق، ولكن بعد أن قضى عليهم كورش الكبير وأسس عاصمته بارسا كاد Pasacdes فقدت مدينة « آنشان » أهميتها وأصبحت شيئاً فشيئاً قرية صغيرة

تناولها النسيان : وفي عام ١٩٧٢ م عثر العالم الأثرى الأمريكى الدكتور Dr. Sumner على آثار قديمة للمدينة في أنقاض « ملين » و « تل بيضا » فظهرت مرة أخرى إلى الوجود مدينة آنشان الأثرية . فلا غرو إذن أن نرى سكان هذه المدينة - التي ورثت الحضارة العيلامية - متميزين بنهضة علمية ومقدرة عقلية جبارة، فيظهر من هذا الوسط الحضارى من أمثال سيديويه والحلاج والبيضاوى وغيرهم من الأفاضل .

(٤)

وبعد أن بزغت شمس الإسلام، وانقرضت الدولة الساسانية على يد المسلمين العرب (٦٥٠ م) وجالت خيول العرب من الجزيرة العربية على شكل الغزاة المسلمين في جميع إيران وثوران ، أقاموا معسكراتهم في منطقتين :

إحدهما في شمال العراق باسم الكوفة والأخرى في الجنوب باسم البصرة، وإن هاتين المنطقتين العسكريتين تطورتا أخيراً إلى مركزى علم وأدب للعرب ، وكان المسلمون العرب يحكمون من الكوفة شمال إيران من ما وراء النهر إلى إرمنتان (إرمينية) ومن البصرة يحكمون المناطق الجنوبية والشرقية حتى السند والهند ، ولما هدأت الأحوال وأخذت الأمور تسير في مجراها في القرن الثاني، واستتب السلام ، وتوفرت الفرص

(١) فارسنامه ناصرى ج ٣

للدراية والبحث لرجال العلم ، تكونت حيثئذ مدرستا الكوفة والبصرة من علماء العرب والفرس ، وانهاى رواء الحديث وطلاب العلم من كل حذب على هاتين المدينتين، وظهر رجال الفكر والثقافة فى كل فن من فنون العلم والأدب، وألفت كتب كثيرة فى فنون الأدب، كاللغة والنحو والصرف والشعر، وكذلك فى علوم الفقه والتفسير والكلام . فى هذا الوسط الثقافى برز إلى الوجود عالم اشتهر فى علم اللغة والأدب والموسيقى، وألف كتباً كثيرة وهو الخليل ابن أحمد (١٧٠ هـ ق) الذى كان يقيم فى البصرة، وقد عرف بالأستاذ : ورحل سيبويه إلى إيران مع أبيه من فارس إلى البصرة ، وفى هذا الجو المشبع بالعلم والفن عكف أولاً على دراسة الحديث والفقه، ثم على دراسة النحو وتعلم على الخليل بن أحمد، فأخذ عنه اللغة وعلم النحو، إلى أن وصل مرتبة الكمال وهو حدث، وقبيل الشباب حاز على قدر كبير من العلم والفضيلة، وقد أثنى الخليل فى إبان دراسته على سيبويه وكان يستقبله الخليل بترحيبته المعروفة : « مرحباً بزائر لا يمل » . وقيل إن الخليل لم يشن على أحد مثلى ما أثنى على سيبويه . وقد تتلمذ سيبويه أيضاً على أساتذة آخرين أمثال الأخفش الكبير (عبد الحميد بن عبد الحميد البصرى (توفى ١٧٧ هـ ق) . وقد أخذ سيبويه لغته من أبناء البادية أيضاً . وتعلم على سيبويه

علماء كبار من مثل : الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة المتوفى ٣١٥ هـ ق) والأخفش الأصغر (على بن كيسان المتوفى ٣١٥ هـ ق) ، وغيرهما .

(٥)

إن أعظم أثر تركه لنا سيبويه كتاب اشتهر به « الكتاب » بصورة مطابقة ، وقد أثنى على « الكتاب » طوال التاريخ الثقافى الإسلامى، ولا يزال مصدراً كبيراً من مصادر الدراية فى علم النحو والعربية، وقد شرح هذا الكتاب وعلق عليه كثير من العلماء : منهم : أبو سعيد السيرافى (٣٦٨ هـ ق) وأبو على الفارسى المعاصر له، وغيرهما من الشراح (انظر معجم الأدباء لياقوت) وطبع فى كاكته والقاهرة وبغروت وباريس وبرلين .

ولاشك أن سيبويه قد أرسى قواعد اللغة العربية، ووضع أصولها فى هذا الكتاب . وقد قيل إنه أخذ الأصول من الخليل : واقتبس الفروع والشروح من عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب، وغيرهم من علماء البصرة ، فجمع أشتات واضيعها ورتبها . ولهذا عرف « الكتاب » باسم سيبويه . وهذا كتاب قد شبهوه بالبحر .

(٦)

وعندما شمت صروح الخلافة فى بغداد وأخذت فى التوسع، وأصبح الوزراء البراءكة

موثلاً ومحباً للخاص والعام ، قصد عالمنا الشاب بغداد ليزور يحيى البرمكى ، فجاز في بغداد على مكانة وشهرة واسعتين جداً . وهناك كان الكسائى أبوالحسن على بن حمزة الكوفى أحد القراء السبعة ومعلم هارون وابنه الأمين (توفى فى الرى ١٨٩ هـ) ونعلم أنه من رواد مدرسة الكوفة ، وكان فى بغداد تفرش له الوسادة ، وله منزلة سامية عند الخليفة حيث عينه معلماً لولده محمد الأمين ، ولما عرف الكسائى مالمسيويه من منزلة كبيرة فى العام حسده ، وخطأه فى بعض من المسائل العلمية ، فلما اشتد الخلاف بينهما أمر يحيى البرمكى أن يعقد مجلس بحث ونوقشت القضية المعروفة « بالزنبورية » (والمسألة موجودة فى كتب النحو المبسطة أمثال مغنى اللبيب لابن هشام) ولما كان الكسائى محظوظاً لدى جهاز الخلافة تأمر محمد الأمين والكسائى على سيويه ، وجاءوا بجماعة من أعراب البادية ليحكموا بينهما ، فأوعزوا إليهم أن يخطبوا سيويه ويقولوا : « الصواب قول الكسائى »

(انظر وفيات الأعيان والفهرست)

وبهذه المسرحية المبكية أفحموا سيويه الفارسي الذى كان ذا لكمة بسيطة فى لسانه ، ولكن أسلوبه وطريقته فى الكتابة سهلة مرنة جزلة . وبعد هذه الحادثة ، قام يحيى البرمكى الذى أعد هذا البرنامج باستعطاف سيويه ، وقدم إليه عشرة آلاف درهم . فعاد سيويه

من بغداد إلى البصرة وقد صمم على أن يذهب إلى طلحة بن طاهر أمير خراسان ، فلما وصل إلى مدينة ساوة اضطره المرض على أن يعدل عن سفره إلى خراسان ، وهو مهموم ومهضم ، فيهم نحو شيراز قاصداً موطنه الأصيل . فتوفى هناك فى الثانية والثلاثين من عمره على قول ، وقيل : فى الأربعين من عمره ، ودفن فى مقبرة « باهلية » ، وقد نصب عليه رخام أسود ، وقد بقى من تربته هذا الحجر الأسود حتى الآن . واشتهرت المنطقة التى فيها قبر سيويه بواسطة الرخامة = سنك ، « منطقة » سندسيه « الحجر الأسود (١)

(٧)

قد اختلف المؤرخون وكتاب التراجم فى مدفن سيويه ، فبعضهم قال : إنه دفن فى مدينة ساوة ، وقال آخرون دفن فى « يضا » مسقط رأسه . أما أصح الأقوال فهو أن مدفنه فى شيراز ، وقد زرت قبره فى حى « سندسيه » عليه رخام طوله ٩٤ (م ٩ م ٩) سنتيمتراً وعرضه ٩ سنتيمتراً .

ذكر مؤلف كتاب شد الإزار (المتوفى فى ٧٩١ هـ) بأنه لم يتأكد من موضع قبره فى « باهلية » ، ولكن ابنه عيسى بن جنيد تعرف على القبر وأشار إلى المحل الذى هو الآن معروف لدى عامة سكان شيراز .

(١) شد الإزار ص ٩٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، الفهرست لابن النديم ط ٥ طهران ج ٥٧ ، فارسنامه ناصرى ج ٣

در آثار العجم فرصت شيرازى .

كانت الرخامة سابقاً ذات كتابة ونقوش وقد نحتت عليها أبيات من الشعر ، ولكن مرور الزمن محاً تلك الخطوط وأصبحت الرخامة صافية لمساحة^(١) . ويذكر عيسى ابن جنيد عن سبب لمعان تلك الرخامة : أن المعروف عند عامة الناس في شيراز ، أن من طلاب العلم من إذا أراد أن يصل إلى درجة الكمال يأتي عند قبر سيبويه ويمسح صدره على تلك الرخامة ليكتسب البركة من صاحب القبر ، وقد فشت هذه العادة بين الناس في مدينة شيراز فيأتون بأطفالهم المصابين بمرض السعال الديكي Coquelouche ويمسحون رقابهم وصدرهم ذهباً الكتابة وبسبب هذه العقيدة والمسح المستمر على خطوط تلك اللوحة الصخرية بتلك الصخرة وأصبحت شفافة لماعة^(٢) .

(٨)

كما أسلفنا في صدر كلامنا أن تاريخ وفاة سيبويه هو عام ١٩٤ هـ ق على أصح الأقوال وأن حسن فسائی في فارسنامه قد ذكر تاريخ الوفاة ١٩٥ هـ ق ، ولكن المصادر تدلنا على أن عام ١٩٤ هـ هو أصح الأقوال بما يلي :

أولاً : أن الحافظ الخطيب البغدادي أبا بكر أحمد بن علي (المتوفى ٤٦٣ هـ ق) ذكر في تاريخ بغداد ، أن وفاة سيبويه كانت في ١٩٤ هـ ، وعمره اثنتان وثلاثون سنة ، فعليه يكون قد ولد عام ١٦٢ هـ ، والخطيب كما نعلم من ثقات المؤرخين ومعتمد لدى المؤرخين والأدباء ، وأن القاضي جمال الدين المصري (المتوفى في شيراز ٦٥٣ هـ ق) يؤيد كلام الخطيب^(٣) وأن ابن دريد الأديب اللغوي لي (المتوفى ٣٢٤ هـ ق) والذي أخذ الخطيب عنه كثيراً من مصادره التاريخية ، يقول : إن سيبويه توفي في مدينة شيراز عام ١٩٤ هـ وقبره معروف في هذه المدينة .

ثانياً : بعد دراسة تاريخ المناقشة التي وقعت بين سيبويه وبين الكسائي نعلم أن محمداً الأمين الذي كان ينحاز إلى الكسائي ، ويؤازره في المؤامرة المدبرة على سيبويه كان في مرحلة من النضج والإدراك ، بحيث كان يدرك ويتعقل تدبير المؤامرة. ولما كنا نعلم أن ولادته - أي الأمين - كانت في سنة ١٧٤ هـ فيغلب على الظن أن تكون المناظرة قد وقعت حول عام ١٩٠ هـ وأن سيبويه ترك بغداد بعد أربع أو خمس سنوات إلى ساوة ، ومن هناك إلى فارس ، وتوفي بعد مدة قليلة. واعتماداً على هذه الوثائق التاريخية نقطع بأن وفاته كانت عام ١٩٤ هـ وما عدا ذلك ليس بصحيح .

(١) آثار العجم ، فرصت شيرازي (تأليف عام ١٣١٠ هـ ق)

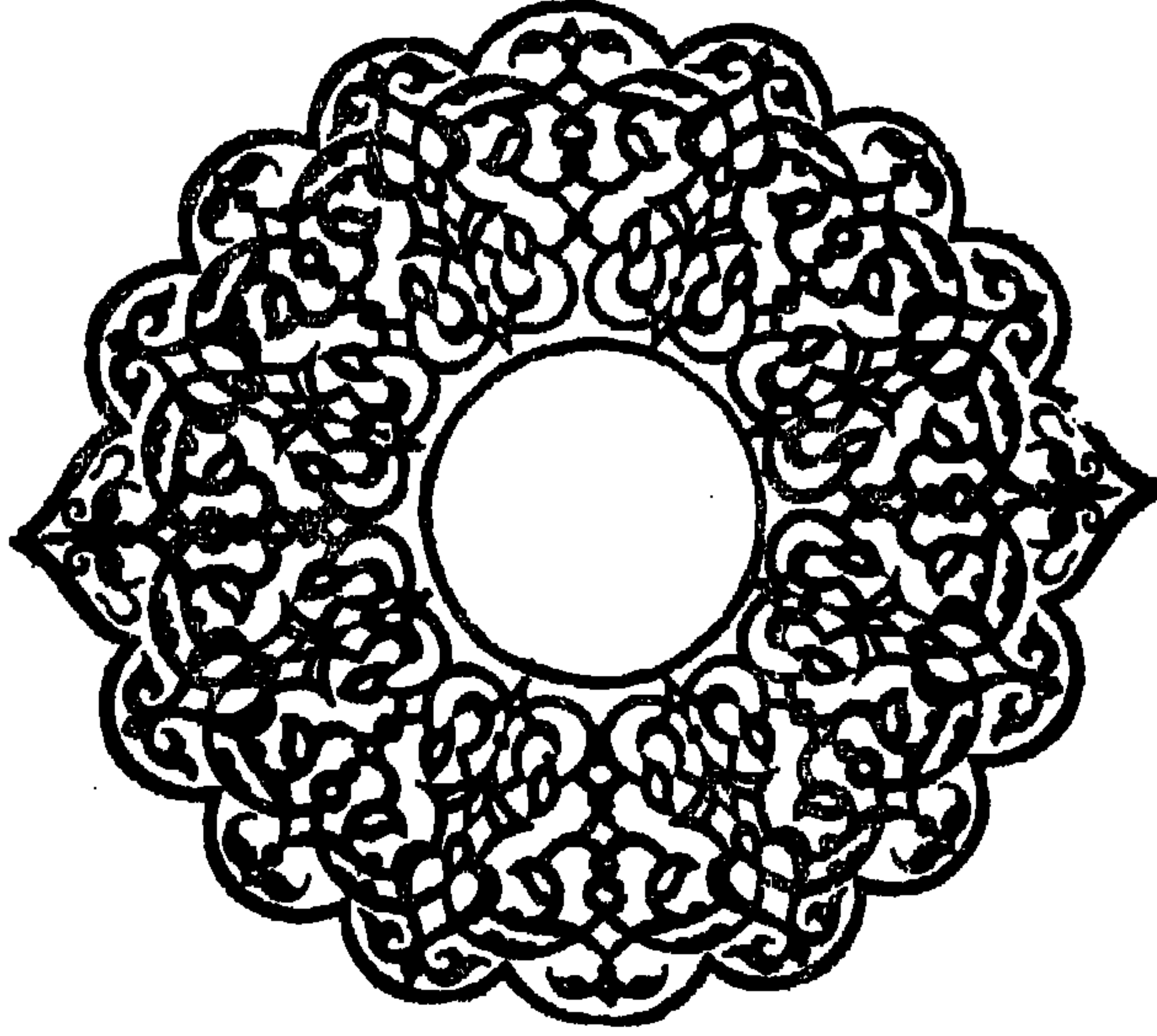
(٢) المزارات عيسى بن جنيد ص ٤٦٥

(٣) شد الإزار ، هامش ص ٩٨

الآن بتشديد بناء ضريح يناسب ذلك الإمام
الفارسي في شیراز، وهي أيضاً بصدد شراء
الدور التي تحيط بالمقبرة في «سند سياه»
وتسوية المعابر والشوارع الموصلة إلى المقبرة
إن للجمعية الثقافية في فارس وبلدية شیراز
الدور الفعال في هذا العمل العظيم . أرجو
من الله التوفيق وعليه التكلان :

وفي هذا العام (أي ١٣١٤ هـ ق = ١٣٥٣
هـ ش) يوافق الذكرى المئوية الثانية عشرة
لوفاة سيبويه . قامت جمعية الآثار الوطنية في
طهران التي تقوم منذ نصف قرن على حفظ
الآثار، وإصلاح المباني والمشاهد والمقابر
الأثرية وطبع الكتب والرسائل الكثيرة ونشرها
وجهود علمية كبيرة . هذه الجمعية تفكر

على اصغر حكمت
طهران - ايران



سيبويه في الميزان

للدكتور احمد مكي الأنصاري

قبل

أن أخوض في هذا الحديث المستفيض أبادر فأضع بين يديكم مبدأ راسخا .. ينبغي ألا نحيد عنه في دراساتنا لسيبويه العظيم .. ذلك المبدأ هو :

يجب أن نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكن ينبغي ألا نقدره أي تقديس .. وفرق كبير بين التقدير والتقديس :

ذلكم هو المبدأ .. وهذا هو المنطق الذي نطلق منه ، في رحلتنا الطويلة مع سيبويه .. وأظنكم توافقونني على أن تقديس الأشخاص حرام .. حرام قطعا ، شرعا وقانونا ونجوا وصرفا .

والآن نبدأ في وزن سيبويه .. وأشهد أنني لم أجد ميزانا واحدا يتسع لوزن سيبويه الضخم العملاق . وكيف تتسع له الموازين وقد طبقت شهرته الآفاق .. شرقا وغربا ، عربا وعجماء . فكان ملء السمع والبصر والفؤاد .. في القديم وفي الحديث على السواء .

إن سمعة سيبويه العبقري تغزو الآن أوروبا .. حتى أن كتابه الفريد يترجم إلى بعض اللغات الحية مثل اللغة الألمانية ،

والإسبانية .. وغيرهما من اللغات . وقدما أنصفوه فأطلقوا عليه (إمام النحاة) .. كما أنهم بالغوا في تقدير كتابه فقالوا : (إنه قرآن النحو) ، وحسبه ذلك تمجيذا وتقديرا . ومن هنا يجد الباحث نفسه أمام عمل ضخم حينما يحاول جاهدا أن يضع (سيبويه في الميزان) . وأشهد أن عبقرية سيبويه تجلت في كتابه الخالد .. فهو كثر هائل ، ومنبع ثر ، كأنه بحر زاخر يمد من بعده سبعة أبحر .. فيه من الجوانب الحية النابضة ما يدعو الباحثين إلى التعمق فيها ، وهي مازال أبكارا ، عربا أترابا . تنتظر الباحثين في كثير من الميادين ، مثل الأصوات ، واللهجات ، والبلاغة ، والنقد .. بالإضافة إلى النحو والصرف واللغة بوجه عام .. وإليك بعض العناوين لتكون بين يديك بمثابة دليل أو معين .

١ - سيبويه والأصوات : في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ - سيبويه واللهجات :

٣ - شواهد سيبويه على محاك النقد - (ومن ورائها الشواهد النحوية بوجه عام) .

٤ - التداخل بين البلاغة والنحو في كتاب
سيبويه :

٥ - كتاب سيبويه بين النقل والابتكاره .

٦ - القضايا النحوية بين سيبويه والمبرد .

٧ - أخطاء سيبويه في نظر ابن تيمية .

٨ - مشكلات ابن الضائع في كتاب
سيبويه :

٩ - مأخذ الأخفش على الكتاب .

١٠ - ظاهرة التأويل في كتاب سيبويه .

١١ - وأخيرا وليس آخرا (سيبويه
والقراءات) :

كل هذه الموضوعات أو جلها وغيرها
كثير وكثير ... ما تزال تنتظر البحث ...
ومن خلال هذا البحث والدرس العميق
نستطيع أن نزن سيبويه وزنا دقيقا ، لنعرف
حجمه الطبيعي دون تهويل أو تهوين ...
ثم نضعه في المكان اللائق به . وما أحسبه إلا
في عنان السماء : بين السماكين أو الفرقدين .
وكم كنا نود أن نزن سيبويه من جميع النواحي ،
ولكن أنى لنا ذلك . والجهد قاصر ، والقضايا
متعددة الجوانب : لهذا وذاك سنقصر
حديثنا الآن على قضية واحدة ، فقط وهي
(موقف سيبويه من القراءات) - وقدما
قالوا : « ما لا يدرك كله لا يترك كله » ،
« وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » .
وليك البيان :

القضية الكبرى :

هي : موقف سيبويه من ، القراءات
القرآنية .. ومنها تنفرع سائر القضايا الأخرى
وهي :

١ - قضية المعارضة الصريحة للقراءات
عند سيبويه :

٢ - قضية المعارضة الخفية للقراءات عند
سيبويه :

٣ - قضية التأويل للآيات القرآنية عند
معارضتها للقواعد النحوية :

٤ - قضية موافقة الكتاب للكتاب ،
والمراد بها موافقة كتاب سيبويه لكتاب
الله العزيز :

مسالك التفكير عند سيبويه :

ينحيل إلى أن مسالك التفكير عند سيبويه
كانت على النحو التالي :

إن سيبويه - رحمه الله - وضع القواعد
النحوية في كفة ، ووضع الآيات القرآنية
في كفة أخرى ، ثم نظر في الآيات القرآنية فما
كان منها موافقا للقواعد البصرية : تقبله
بقبول حسن ، واستشهد به في الكتاب
وتلك هي القضية الرابعة التي أشرنا إليها
آنفا (موافقة الكتاب للكتاب) : أما ما تعارض
من الآيات مع القواعد النحوية البصرية :
فوقف منه مواقف ثلاثة : تتجلى فيما يلي :
قسم منها استطاع أن يخضعه للتأويل
والتقدير : ليتفق مع القواعد البصرية

وتلك هي القضية الثالثة (قضية التأويل للآيات ، وإخضاعها للقواعد) .

أما الباقي من الآيات المتعارضة للقواعد البصرية .. فإنها تأتي الخضوع للتأويل والتقدير :

وحينما استعصت على سيبويه وقف منها موقف المعارضة القوية ورماتها بالضعف ، والقبح والرداءة .. لا شيء إلا لأنها خالفت القواعد البصرية .. وكأن القواعد النحوية مقدسة أكثر من الآيات القرآنية.

ومهما يكن من أمر فإن المعارضة القوية كان لها مظهران عند سيبويه :

المظهر الأول : هي المعارضة الخفية .. وذلك حينما يضع القاعدة النحوية التي تصطدم بالآية اصطداما عنيفا دون أن يذكر نص الآية بصراحة .. وإن كان يذكر كل ما ينطبق عليها ، ويحددها تمام التحديد . وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد يستوى فيها التصريح والتلميح : والمظهر الآخر هو المعارضة الصريحة .. وذلك عندما يفلت منه الزمام .. فيذكر نص الآية بصراحة ويذكر معها بعض الصفات التي لا تليق .. كما سيأتي بالتفصيل عما قليل : ولعلك تلاحظ أن المعارضة الصريحة ، والمعارضة الخفية ،

هما وجهان لعملة واحدة : يتعامل بها سيبويه مع القراءات التي لا تتفق مع المذهب البصري ، ولا يستطيع إخضاعها للتأويل والتقدير يروهما ، ثلثان القضية الأولى والثانية من القضايا الأربع التي تشمل عليها القضية الكبرى ، وهي (موقف سيبويه من القراءات) .

وإليكم بعض النماذج

أولا : نماذج من المعارضة الصريحة^(١) :

قال تعالى في سورة الجاثية^(٢) : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» : جاءت القراءة بنصب كلمة (سواء) ويرفعها كذلك ، وكلتاها قراءة سبعية ، ولكن سيبويه يأخذ ما يروق له وهي قراءة الرفع .. ثم يهاجم قراءة النصب ويصفها بالقبح والرداءة^(٣) مع أنها قراءة سبعية كما ترى .. قرأ بها أكثر من قارئ في السبعية . قرأ بها حفص وحمزة والكسائي : وتوجيهها في النحو سهل ميسور .. فإنها تعرب حالا ، أو مفعولا ثانيا لنجعلهم ، أي نجعلهم سواء في الحيا وفي الممات .. إلى غير ذلك من الإغاريب التي ذكرها العلماء بالتفصيل ،

(١) انظر تفصيل كل ذلك في كتابنا (سيبويه والقراءات) ص ١٦ فابعدا ، توزيع دار المعارف بمصر

(٢) آية : ٢١

(٣) راجع الكتاب ١ : ٢٣٣ ط بولاق

ولكنها لا تتفق مع مذهب سيبويه ..
ولهذا وصفها بالقبح والرداءة سامحه الله .
وهناك آية أخرى ينطبق عليها وصف سيبويه
بالقبح والرداءة ، وهي قوله تعالى : «سواء
العاكف فيه والباد» وهي قرعة سبعية أيضا^(١) .
ولكن سيبويه لا يحفل بالقراءة السبعية أو غيرها
من القراءات . إذا ما اختلفت مع القواعد
النحوية الصرية بالذات .

ومن النماذج أيضا قراءة آية أخرى وصفها
سيبويه بالضعف والقبح معا^(٢) وهي قوله
تعالى : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على
الذى أحسن » بضم كلمة (أحسن) على
أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : تماما
على الذى هو أحسن - مثل هذا جائز
مستساغ ، لا غبار عليه عند غير سيبويه
ومن لفظة لفه من البصريين والمتبصرين ..
أولئك الذين هاجموا هذه القراءة ورموها
بالضعف والقبح والشذوذ .. ومن كان
منهم معتدلا بعض الاعتدال وصفها بالقلة
والندور^(٣)

وإن أردت المزيد من النماذج فعليك
بكتاب (سيبويه والقراءات)^(٤) ففيه بعض
الآيات التى عارضها سيبويه معارضة

صريحة ، ومنها قوله تعالى : « وقالوا
يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »
فى قراءة أبى عمرو بن العلاء بالإبدال -
والمراد إبدال الهمزة ياء فى (ائتنا) وكان
حقها أن تبدل واوا فى نظر سيبويه ؛ لأن
ما قبلها مضموم .. فلما لم تجئ على القاعدة
البصرية رماها بالضعف - سامحه الله .

ثانيا : من نماذج المعارضة الخفية^(٥) :

(أ) قال تعالى فى سورة يس :
« إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن
فيكون »^(٦) قرأ بنصب المضارع (يكون)
قارئان كبيران من القراء السبعة .. هما
الكسائى وابن عامر - وتكررت قراءة
النصب فى هذا الحرف من القرآن حين
جاء فى سورة النحل كذلك عندهما معا -
كما أن ابن عامر قرأ بالنصب فى جميع
المواضع الأخرى التى ورد فيها هذا الحرف
من القرآن الكريم ، باستثناء موضعين اثنين
ومع هذه الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية
المنصوبة .. ومع التوثيق الكامل لقراءة
الكسائى وابن عامر فإن سيبويه رحمه الله
يقرر ضعف النصب . هذه الحال^(٧) .

(١) راجع كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٢٣

(٢) انظر الكتاب ١ - ٢٧٠ ط بولاق

(٣) راجع شراح الألفية فى باب الموصول عند قول ابن مالك :

(وبعضهم أعرب مطلقا وفى ... ذا الخلف أيا غير أمر يقتضى)

(أن يستعمل وصل وإن لم يستعمل ... فالخلف تزد وأبوا أن يختزل)

(٤) ص ٢٥ فما بعدها - (٥) راجع تفصيل كل ذلك فى كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٤٦ فما بعدها

(٦) آية - ٨٢ (٧) راجع الكتاب ١ - ٢٣٠ ط بولاق

لا لشيء إلا لأنها لا تتفق مع القاعدة النحوية التي وضعوها بأيديهم في مصنع التقعيد - وخلاصة القاعدة عندهم أن الفعل المضارع لا ينصب بعد الفاء إلا إذا كان جواباً . هذه هي القاعدة الناقصة التي أحاطوها بالتقديس أكثر من القراءات القرآنية المحكمة؛ ماذا عليهم لو نسفوا هذه القاعدة من أساسها : و على الأقل يعدلونها ويوسعونها بحيث تشمل هذه القراءات السبعية المتعددة : ويجيزون النصب - دون ضعف - كما يجيزون الرفع وإن كان الرفع أكثر !

ماذا على شيخنا سيديويه - رحمه الله - لو فعل ذلك : وأعفى نفسه من الحرج بوضع قاعدة نحوية تصطدم بالقرآن الكريم في أعلى قراءاته : وهى القراءة السبعية ؟ ليته فعل ... ولكنه لم يفعل مع الأسف الشديد .

(ب) ومن ذاك (١) قوله تعالى : «يأياها النبي لم تحرم ما أحل الله لك» (٢) وقوله جل شأنه : « أولئك هم خير البرية » (٣)

قرأ نافع بتحقيق الهمزة في الكلمتين معا (النبي والبرية) وهو من القراء السبعة وبه بدأ ابن مجاهد حيث كانت قراءته أوثق القراءات

في نظره لأنه قرأ على سبعين من التابعين ، ولكن سيديويه - رحمه الله - لا يبالي بذلك ويصف هذه القراءة بالقلة والرداءة (٤) .

هذا إلى أن تحقيق الهمزة وتخفيفها كلاهما لهجة واردة عن العرب الفصحاء . وأكثر من هذا أن التحقيق أدخل في باب اللغة من التخفيف ، وفي هذا يقول العلامة الرضى : « والتحقق هو الأصل كسائر الحروف ، والتخفيف استحسنان » .

وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فالقرآن وحده الحجة البالغة على جميع اللغات . والقراءة سنة متبعة : ولولا ذلك ما تكلفت

قريش نبر الهمزة وتحقيقها في القرآن الكريم ، وآية ذلك أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال : « نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا » (٥) فانظر إلى الإمام على يقرر نزول الوحي بقراءة الهمزة ويخضع لها مع أنها تخالف لهجته الخاصة . ثم انظر إلى سيديويه يصفها بالرداءة مع أنه يعلم اليقين أنها واردة وأن القراءة سنة متبعة هذه واحدة . وأخرى سلفت : وهناك أخريات . وأخريات مما لا أطيل بذكره الآن (٦)

(١) انظر ص ٧٠ فما بعدها من كتاب (سيديويه والقراءات) (٢) التحريم

(٣) سورة البينة آية رقم (٧) وقبلها جاءت كلمة (البرية) كذلك في آية رقم (٦) من نفس السورة .

(٤) انظر الكتاب ٢ - ١٧٠ - ٢١٣ ط بولاق (٥) راجع شرح الشافية ٣ - ٣٢

(٦) راجع الملخص السابق في كتاب (سيديويه والقراءات) .

ومنها (تاءات البزى) المشهورة عند جميع القراء . وعددها واحد وثلاثون موضعاً في القرآن الكريم : وقد تعرض سيبويه لبعضها فمنعها منعاً باتاً مع أنها جميعاً من القراءات السبعة المحكمة (١) :

ثالثاً : من نماذج التأويل (٢)

(أ) قال تعالى في سورة النور (٣) : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . الإعراب الفطري الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب (الزانية) مبتدأ وخبره جملة (فاجلدوا) . وبه قال بعض العلماء الأجلاء من أمثال المبرد والزجاج والزمخشري وأبي زكريا القراء :

غير أن سيبويه — رحمه الله — لجأ إلى التأويل البعيد حينما وقفت له الصنعة بالمرصاد فقال : إن خبر (الزانية) محذوف تقديره (فيما يتلى عليك الزانية والزاني — أو فيما يتلى عليكم حكم الزانية والزاني) . أما جملة (فاجلدوا) فأعربها مستأنفه . ولا يصح أن تكون خبراً في نظره لا شيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية البصرية :

فانظر إليه رحمه الله : كيف تتحكم فيه الصنعة فيرفض الإعراب الذي يسائر الفطرة كما يسائر طبيعة اللغة العربية السميحة . . فإذا عليه لو أجاز هذا الإعراب كما أجازوه العلماء الأجلاء من المدارس النحوية الكبرى جميعاً ؟ وما الذي يضيره أو يضير اللغة العربية حينما يوسع هذه القاعدة الناقصة . . فيجعلها تشمل هذا الخبر كما تشمل غيره من الأخبار ؟ لو فعل ذلك لأراح نفسه وأراح الناس من بعده . . من أمثال هذا التأويل المتكلف ، وذلك التقدير الذي يفسد الذوق العربي السليم . . ولكن هيهات أن يمس القاعدة المقدسة مهما كانت مخالفة للكثير من الآيات القرآنية المماثلة (٤) : ومن الشعر العربي الفصيح (٥)

(ب) ومن التأويل المتكلف ما جاء في قوله :

قرله تعالى : « إذا السماء انشقت » — وقوله جل شأنه : « وان أحد من المشركين استجارك » (٦) إذا أردت الفطرة السليمة في الإعراب واستلهمت الحس اللغوي المرهف أعربت كلمة (السماء) مبتدأ وما بعدها خبر لها — وكذلك الحال في الآية الثانية . . وبه قال كثير من

(١) انظر ص ٥٣ فما بعدها من نفس المصدر . (٢) راجع ص ١٧٠ فما بعدها من المصدر السابق .

(٣) آية رقم ٢

(٤) من الآيات المماثلة قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » المائدة ٣٨ — وقوله عز وجل : « واللذان يأتياها منك فاقضهما » النساء — ١٦ .

(٥) من ذلك قال الشاعر :

وقائلة خولان فالكع فعاتهم وأكرمة الحيين علو كاهيا

(٦) القوية : آية .

العلماء الاجلاء^(١) ولكن سيبيويه — رحمه الله — يرفض هذا الإعراب الفطري الجميل ويلجأ إلى التأويل والتقدير، ويتبعه في ذلك سائر البصريين والمتبصرين إلى يومنا هذا في هذا العصر الحديث : يقولون : إن كلمة (السماء) فاعل لفعل محذوف تقديره (انشقت) وكذلك كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف تقديره (استجارك) : وبناء على هذا وذاك يكون التقدير في الآيتين هكذا : — (انشقت السماء انشقت) — (وان استجارك أحد من المشركين استجار) . وأكثر الظن أننا لسنا بحاجة إلى التعقيب على هذا التقدير المتكلف ذلك الذي يخرج الآية الكريمة عن سماحتها وسلاستها .. ويشوه الأسلوب القرآني الرفيع .

ويلاحظ أن باب التأويل داخل في التعارض مع القواعد : ولكن سيبيويه — رحمه الله — يلوى أعناق الآيات : إلى أن يخضعها للقواعد البصرية : أما القسم الذي لا يقبل الخضوع للتأويل فإنه يقف منه موقف المعارضة الصريحة ، أو المعارضة الخفية — كما سلف به البيان — غير أن الكل داخل في باب التعارض مع القواعد — كما ترى :

والآن آن لنا أن نقتضب الحديث اقتضاباً، ونكف عن ذكر النماذج للقضية الرابعة وهي (موافقة الكتاب للكتاب) : ذلك أن معظم الآيات الواردة^(٢) في كتاب سيبيويه من هذا القبيل : فلا تحتاج إلى بحث أو تنقيب .. ومن أراد شيئاً من النماذج المختارة فعليه بالمبحث الرابع من كتاب (سيبيويه والقراءات)^(٣) .

أثر سيبيويه في المخالفين :

وكان من الطبيعي أن يتأثر النحاة بما جاء في كتاب سيبيويه : وأن يقتدوا به (حذوك الكف بالكف) : إلا من رحم ربك .. وقليل ما هم : ولنا مع هؤلاء النحاة حديث يطول نرجئه إلى حين . غير أننا نشير إشارة عابرة إلى (المزايدات) التي زادوها على سيبيويه في قراءة سبعية محكمة^(٤) وهي قراءة حمزة في سورة النساء : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » بخفض الأرحام ، حيث وصفوها بالقبح والضعف واللعن والخطأ .. وأكثر من هذا وذاك أنهم حرّموا القراءة بها تحريماً قاطعاً .. ولهذا قال المبرد : « لو أني صليت خلف إمام يقرأها لقطعت صلاتي وحملت نعلي ومضيت » .

(١) من أمثال الأخفش وأبي زكريا الفراء والكوفيين بوجه عام .

(٢) أحصاها بعض الباحثين فوصل بها إلى (٣٧٣) آية ، وهي تمثل جميع القضايا الأربع التي عالجناها في كتابنا

(سيبيويه والقراءات) (٣) ص ١٨١ فا بعدها . وانظر الكتاب ١ / ٣٧ فا بعدها و ١ / ٤٦ فا بعدها و

٢ / ١٦٥ و ١٢٠ فا بعدها وغيرها كثير . طبع بولاق .

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (الدفاع عن القرآن) توزيع دار المعارف بمصر .

لا لشيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية
الناقصة .. ماذا عليهم لو عدلوا هذه القاعدة
كما عدلها الإمام التقي الورع الحصيف .. ابن
مالك الحياثي حيث قال في الألفية المشهورة:

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازما قد جعلنا

وليس عندي لازما إذ قد أتى
في النظم والنثر الصحيح مثبتا

حياك الله يا ابن مالك .. حياك الله أيها الإمام
العظيم .. حياك الله أيها النحوي الغيور على
القرآن الكريم ، وقراءاته السبعية المحكمة.

هذا إلى أنني لا أتهم هؤلاء النحاة ..
كما أنني لا أتهم^١ سيوييه في دين أو خلق .. فقد
كان رحمه الله - مثالا عاليا لهذا وذاك .. ولكنها
العصبية المذهبية .. . والتمسك بالقواعد
النحوية الناقصة .. وكان جديرا به ، وبغيره
من النحاة الأوائل أن يتخذوا القرآن الكريم
منبعهم الذي لا يغيض ، ومصدرهم الأول
في كل تقعيد .. ومن هنا كانت دعوتنا
الحارة لا تتخاذل الخطوات الجادة في إخراج
(النحو القرآني) .. وأكرر وأضغط في التكرار
على (النحو القرآني)

نداء ورجاء للإصلاح نحونا الجميل :

لعل لا أكون متعصبا لتخصصي حين
أقول : إن النحو العربي من ألد العلوم

وأجملها .. ولكن تشويبه بعض الشوائب
وليتنا نستطيع أن نخلصه من هذه الشوائب
الدخيلة عليه ، المتطفلة على موائده الشهية
الذيذة الممتعة .. . وتتمثل هذه الشوائب
في آثار الفلسفة الإغريقية ظنا منهم
أن النحو منطقي دائما وأبدا .. ونسوا -
أوتناسوا - أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع
دائما للمنطق العقلي .. وإنما لها منطقتها الخاص
الذي قد يتفق مع المنطق العقلي ، وقد يختلف
معه في بعض الأحيان (١)

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى شيء
من الإصلاح المتعقل .. وإذا كان الإصلاح
الحذري^(٢) للنحو العربي قد عز علينا .. فإن
يعز علينا - مجتمعين - مثل هذا الإصلاح
الحزبي .. ذلك الذي يتمثل في (حركة
التنقية والانتقاء) بحيث نبدأ بتنقية النحو
من جميع الشوائب الفلسفية التي علقت
به .. ثم نقوم بحركة الانتقاء ، واختيار
أيسر الآراء على الدارسين والمتعلمين ..
شريطة أن يكون هذا التيسير قائما على أساس
من الأصالة في اختيار الآراء من أقوال
النحاة القدماء دون تعصب لشخص ..
أو مذهب على مذهب .. ونكتفي بهذه الإشارة
الحافظة إلى الإصلاح :

والإصلاح لدينا حديث طويل نرجئه
إلى حين ، ولكن لنا بعض التوصيات .. وإليك
البيان :

(١) باب (عطف النسق)

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (أبو زكريا الفراء) ص ٤٠٣ فا بعدها - توزيع دار المعارف بمصر ..

(٣) راجع ص ٤٠٩ فا بعدها من المصدر السابق بعنوان (المنهج اللغوي السليم)

التوصيات التي يهدف إليها هذا
البحث تتركز فيما يأتي :

١ - الاقتناع الحقيقي بأن القداسة للشواهد
القرآنية .. وليست للقواعد النحوية :
ويتربط على ذلك :

٢ - تعديل القواعد على أساس الوارد
من الشواهد :

٣ - الإصلاح الجزئي .. إذا تعذر الإصلاح
الكلي الجذري^(١)

٤ - تضافر الجهود لإخراج (النحو
القرآني) وتعميمه في جميع البلاد العربية
والإسلامية ، والاستعانة في ذلك بكل
الوسائل المتاحة علميا ودينيا واجتماعيا ..
وتتمثل هذه الوسائل فيما يلي :

(١) في المجامع اللغوية المتعددة .

(ب) وفي الجامعات والمعاهد العليا تلك
التي تعنى بالدراسات العربية
والإسلامية .

(ج) وفي جامعة الدول العربية لما لها من
صلات :

(د) وفي المؤتمرات الإسلامية ومراكزها
الفعالة .

(هـ) وفي وسائل الإعلام باختلاف
ألوانها وأنشطتها .

(و) وأخيرا الاستعانة بالحكومات
الإسلامية المؤمنة لتقرير هذا النحو
في مراحل التعليم المختلفة ؛ ليتسنى له
البقاء والخلود :: بعد الظهور إلى
حيز الوجود.. وإلا أصبح حبرا على
ورق ، وضاع في غمار الحياة ..
وكأنه صيحة في واد أو نفخة في
رماد ، ومهما يكن من شيء
فإنني راض عن النتائج.. حيث إنني
شاركت ونهت .. ومازلت أنادي
وأصبح.. أأهل بلغت اللهم فاشهد.
(وبعد) فأود أن تحكموا بيني وبين
سيبويه العظيم .. هل ظلمته .. أو تجنيت
عليه ؟

ما أظن هذا ولا ذاك .. فتلك نتيجة
البحث المنهجي الصرف .. وقد حكمنا
عليه بما رأيناه واستخرجناه من كتابه هو
.. وحملناه أوزار ما صنعت يده - إن
جاز لنا أن نحمل الباحثين المجتهدين شيئا من
الأوزار - وقدما قالوا في الأمثال العريقة :
«يداك أوكتا وفوك نفخ» .

على أنني لم يكن من أهدافي قط أن أنال
من شيخنا الكبير سيبويه إمام النحاة ..
أو أغض من شأنه في قليل أو كثير .. بل على
العكس - كما يقول أحد الزملاء الفضلاء
العقلاء - أنني بذلك دافعت عن سيبويه
دفاعا مجيدا :: حيث أبعدت عنه شبهة الزندقة
أو الإلحاد .. ونسبت هذا الصنيع في
المعارضات إلى النزعة النحوية من العصبية

(١) نفس المصدر .

المذهبية، والتمسك بالقواعد إلى حد كبير :
والهدف الأساسي عندى هو التنبيه إلى بعض
الثغرات التى نفذ منها الفساد إلى النحو العربى
ثم العمل على سد هذه الثغرات :، ومحاولة
الإصلاح بالقدر المستطاع :، ونتمنى أن
يتحقق شىء من ذلك :، وألا نقول مقالة
الشاعر الأول :

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟! »
والآن بعد مئات السنين :، بعد ألف
سنة أو تزيد :، يفكر العالم فى تكريم سيويه
بإقامة مهرجان له فى إيران :، وإذا أردنا
أن نكرمه حق التكريم ينبغى علينا أن نعكف
على كتابه الخالد، وندرسه دراسة جادة واعية
ناضجة متعمقة :، ونستخرج منه الكنوز
الدفينة التى احتواها :، ثم ننظر إليها فى ضوء
مناهج البحث الحديث :، ونقف منها موقف
الباحث لا موقف المناظر :، وفرق كبير
كبير بين الموقفين كما تعلمون :

هكذا يكون تكريم سيويه العملاق :،
وهكذا يكون الانتفاع بعلمه الغزير :، فى
كتابه الفريد ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعمق
العميق فى دراسة الكتاب :،

ومعظم الباحثين فى عصرنا الحديث
يهابونه هيبة شديدة ، ولا يكادون يقتربون منه
ولهذا أهمل أو كاد فى كثير من الجامعات
الحديثة :

أما فى العصر القديم فلإنهم كانوا يقدرونه
بطريقتهم الخاصة :، ومن بينها الحفظ
والاستظهار، على نحو ما كان يفعل القدماء
فى المغرب والأندلس :، وعلى رأسهم حمدون
النحوى (١) ذلك الذى قالوا عنه : إنه أول من
حفظ كتاب سيويه عن ظهر قلب :، من
الغلاف إلى الغلاف، أو من الألف إلى الياء :
كما يقولون :، فهنيئاً له هذه الأولوية :، وإن
كنا ننظر إليها بمنظار آخر، ونقول كما قال
بعض الحكماء : « إن هذا العمل الشاق لم
يضيف إلى النحو جديداً أكثر من أنه زاد
نسخة من نسخ الكتاب :، فأصبح (حمدون)
كتاباً يمشى على قدمين » :

وفى النهاية : أعود فأقول : إننا نقدر
سيويه كل التقدير :، ولكننا لا نقدره
أى تقديس، وفرق كبير بين التقدير والتقديس :
أحمد مكي الانصارى

في القرآن والعربية: (٢) الصِّراع بين القُرَّاء والنُّحاة للكبير أحمد عبد الله الجندى

المخالفين ولقد حاول النحاة أن يسيطروا على حقل الدراسات القرآنية فضيقوا وحجروا وأولوا وعابوا على القراء ونسبواهم إلى اللحن والوهم :

وسأقدم بين يدي القارىء منهجاً يتجلى في :
أولاً : موقف النحاة من القراءات التي صورت لهجات قبائل عربية منسوبة :
سبعية كانت هذه القراءات أو ما وراء ذلك ثانياً :

موقف النحاة من القراءات التي صورت لهجات قبائل عربية غير منسوبة موضعها مكانها من السبعة أو ما زاد عنها ، ويكون ذلك من خلال عرض النصوص الموثقة الأمانة حتى أشرك القارىء معنى فيما أراه ، وأميل إليه وأحكم به .

ثالثاً : تغيرات وروايات قرائية أخرى .

رابعاً : مقياس الصواب والخطأ عند كل فريق منهم :

لنأمن المقال السابق (١) مكانة القرآن الأقدس في النفوس والقلوب والأرواح ، ومكانة القرآن في العالم الإسلامي ، والمنهج الصارم الذي أخذ به القراء أنفسهم للمحافظة على النص القرآني ، والضوابط والمعايير والمقاييس التي وضعها الأئمة معياراً يعول عليه ، وذلك كله بمثابة الجرح والتعديل لفن القراءات .

ولهذا كان الكتاب الكريم أعرب وأقوى في الحجة من الشعر (٢) ، وأنه يختار له ولا يختار عليه ، وأنه نزل بأفصح لغات العرب ، وغير جائز توجيه شيء منه إلى الشاذ من لغاتها وله في الأفصح الأشهر معنى مفهوم ووجه (٣) معروف « ومن هنا رأى علماء القراءات أن تصحيح قواعد العربية بالقراءة لا أن تصحيح القراءة بقواعد العربية . فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ، أو كثير منهم ، ولم يعتبر إنكارهم ، بل أجمع الأئمة المعتمد بهم من السلف قبولها وقد شدد علماء القراءات النكير على هؤلاء

يتبين

(٢) معاني القراء ١ / ١٤ .

(١) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة عدد ٣٣ .

(٣) تفسير الطبري ١٢ / ٣٢٢ .

(٤)

أولا : طعنهم في القراءات القرآنية التي تمثل لهجات عربية معزوة :

(١) في قوله تعالى : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل^(١) » قرأ حمزة بكسر الياء ووافقه الأعمش ، وأبو عمرو بن العلاء وهي لغة^(٢) بني يربوع إذ الكسر عندهم مطرد في الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم في حالة الوصل ، وقد قال القاسم بن معن عن هذه القراءة (إنها صواب)^(٣) (وكان معن هذا ثقة بصيرا) وقال عنها الأخفش « ماسمعت

هذا من أحد من العرب ولا من النحويين »^(٤) كما وصفها الزجاج بأنها « عند جميع النحويين رديئة مردولة »^(٥) وأنكرها كذلك أبو حاتم ، وربما الزنجشري ، بالضعف وزاد في إضعافها وتهوينها بأن الشاهد الشعري عليها لرجل مجهول ، والحق أن الشاهد الأغلب العجلى ورواه أبو شامة في أول ديوانه^(٦) ويرى المعري : إجماع أصحاب العربية على كراهة هذه القراءة كما يرى أن أبا عمرو ما جاز هذه القراءة إلا متهزئا^(٧) ، وكأنه

يشير بذلك إلى ما جاء عن أبي عمرو عندما سئل « إن أصحاب النحو يلحنوننا فيها فقال : هي جائزة^(٨) » أما موقف أبي العباس المبرد فكان صارما عنيفا يصور غضبه هنا

وثورته ما جاء في تفسير القرطبي^(٩) على لسان المبرد من قوله « لو صليت خلف إمام يقرأ (بمصرخي) بالكسر لأخذت نعلي ومضيت » فانظر كيف يحتج الرجل على سماعه لهجة عربية تواكبها قراءة قرآنية بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم : ويرى ابن الجزري : أنها قراءة صحيحة اجتمعت فيها الأركان الثلاثة . ثم يقول « وقياسها في النحو صحيح^(١٠) » :

واستنبط من هذا العرض أن البصريين أنكروا هذه القراءة إذ أن الأخفش والزجاج وأبا حاتم والمبرد والزنجشري على مذهب البصريين ، أما القاسم بن معن فهو من رؤساء النحويين الكوفيين ، ولهذا أجاز القراءة بها ، كما أجازها أبو عمرو بن العلاء ، لأنه إمام في القراءة ، والمحيزون على حق ، لأن هذه القراءة صحت سماعا ، كما أنها صحت قياسا ، إذ الياء كسرت اتباعا - للكسرة التي بعدها في (بمصرخي إني) واللسان

(١) إبراهيم آية ٢٢ .

(٢) الخزانة ٢ / ٢٥٨

(٣) البحر المحيط ٥ - ٤١٩

(٤) حاشية يس بن زين الدين على التصريح ٢ / ٦٠

(٥) النفران : للمعري ٢٣٩ - ٢٤٠ دار المعارف

(٦) إبراز المعاني ٣٧٠ (٩) / ٣٠

(٣) النشر ٢ / ٢٩٩

(٥) إبراز المعاني ٣٦٩

(١٠) النشر ٢ / ٢٩٩ .

فمما يعمل من موضعه واحد ، ووجه واحد ،
ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها
من بعض ، وتلك شريعة العربية وسنة فيها متبعة .
وذلك ما ميل إليه البدو أمثال « بنى يربوع »
والعجيب ان ينكر هذه القراءة القرآنية
السابقة شيخ من علماء الكوفة ، ويرى
قارئها بالوهم ، ذلكم هو أبو زكريا الفراء
حيث يقول : حدثني القاسم بن معن عن
الأعمش عن يحيى أنه خفض الياء ،
ولعلها من وهم القراء طبقة يحيى فإنه قل
من سلم منهم من الوهم .^(١)

(ب) كما قرأ أبو جعفر يزيد بن
القعقاع وغيره قوله تعالى : « وإذ
قلنا للملائكة اسجدوا »^(٢) بضم التاء وحكى
أنها لغة أزد شنوءة .^(٣) وقال عنها الزجاج هذا
غلط من^(٤) أبي جعفر « كما خطأها الفارسي »^(٥)
ولم يخزها الزمخشري «^(٦) لأن حركة الأعراب
عنده لا يصح أن تستهلك لحركة الاتباع .
ولكن أرجح أن العربية تحرص على
الانسجام الصوتي والاتباع حرصها على
على الإعراب ، ولهذا « رواها الكسائي »
ووجهها أن التاء ضمت اتباعاً لحركة الجيم .
ولولم يتبعوا لخرج اللسان من
كسر إلى ضم ، والعرب تكره ذلك .

وأرى من ذلك أن الزجاج ، والفارسي
والزمخشري وكلهم بصريون قصد
غلطوا أبا جعفر أحد القراء المشاهير
الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبد الله
ابن عباس ، ثم هو شيخ نافع بن أبي
نعيم أحد القراء السبعة ، ثم هو لم
ينفرد بهذه القراءة ، بل قرأ بها غيره ،
وشاركه فيها الكسائي الكوفي ، وإذا
ثبتت طجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ بها
بها القارئ أو يغايط .

ومما يتصل بحركة الانسجام هذه ،
قراءة الحسن (الحمد لله) بكسر الدال
واللام ، وقراءة ابن أبي عتبة (الحمد لله) .
بضم الدال واللام ، وهما قراءتان لأهل البدو ، (*)
وقد عزيت القراءة الأولى لميم وبعض غطفان ،
كما عزيت الثانية لربيعة ، وقد ذهب البصريين
إلى أنهما قراءتان شاذتان في الاستعمال ضعيفتان
في القياس ، كما وسمها الزجاج (البصري)
بقوله « ولا يلتفت إلى هذه اللغة ولا يعبا
بها »^(٧) .

كما حكى الصفار عن علي بن سلمان (الأخفش)
أنه عقب على تلك القراءة بقوله « لا يجوز من
هذين شيء عند البصريين ، يقصد « الحمد
لله » : « الحمد لله »^(٨) .

(١) معاني الفراء ٢ / ٧٥ . ويقرر الفراء وهم القراء : بأنهم ظنوا أن الباء في (مصرخى) خاصة للحرف والياء
من المتكلم خارجة من ذلك .

(٢) سورة البقرة آية ٣٤ . !

(٣) النشر ٢ / ٢١٠ فما بعدها .

(٤) البحر ١ / ١٥٢ .

(٥) البحر ١ / ١٥٢ .

(٦) النشر ٢ / ٢١١ .

(*) المقصود لقراءة أهل البادية ما يقرؤه بعضهم من غير مراعاة للرواية ، وكثيراً ما ربط علماء العربية بين
الفصاحة والبداوة . والحق أن سمة الفصاحة لم يستأثر بها البدو وحدهم . يقول ابن بسلام : إنه كثيراً ما سمع من الأعراب
ألفاظاً مستكرهة قبيحة : العربية ١٦٣ فوك .

(٧) اللسان ٤ / ١٣٣ (٨) نزعة الألباء : ٣٦٤

والحق أن هذه الحركات المنسجمة وإن تعارضت مع الإعراب في حالة كسر الدال إلا أن لها وجهاً مقبولاً، إذ أن هذا التركيب لما كثر تداوله عند العرب جعل هذا التركيب مثل الكلمة الواحدة، ولا شك أن الكلمة الواحدة يستقل فيها الانتقال من ضمة يتلوها كسرة والعكس، فأثروا الكسرتين حيناً، مع أن الحمد مبتدأ مرفوع، كما ضموا اللام اتباعاً للدال في القراءة الثانية. وقد اجتهد الكوفيون في توثيق هاتين القراءتين، لاسيما قد نسبنا لحجة لبعض القبائل.

(ج) كما وردت عدة قراءات لآيات كريمة، وكلها تفيد التقاء الساكنين على غير حدة منها:

- ١ - قوله تعالى «أَمْ نَلَايَهُ لَدَىٰ إِلَّا أَنْ يُهَيِّدَ»^(١)
 - ٢ - قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ نَعَمًا يُعْظِمُكُمْ بِهِ»^(٢)
 - ٣ - قوله تعالى «إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمَاهِ»^(٣)
 - ٤ - «تَأْخُذْهُمْ وَهُمْ يَخْصِمُونَ»^(٤)
 - ٥ - «لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ»^(٥) بتشديد الدال.
 - ٦ - كما ورد في الأثر: نعماً المال الصالح.
- فقد قرأ أهل المدينة بتسكين الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين في الآية

الأولى كما ذكر الشمس ابن الجزري أن أن العراقيين والمشرقيين قدروا الإسكان أى إسكان العين مع تشديد الميم في الآيتين الثانية والثالثة. وبهذا قرأ أبو جعفر أيضاً في الآية الرابعة بإسكان الحاء وتشديد الصاد وبإسكان العين مع تشديد الدال في الآية الخامسة.

ولقد ساق أبو شامة ما يفيد بأن التقاء الساكنين في مثل ذلك إنما هو لغة النبي صلى الله عليه وسلم، كما أيد ذلك صاحب البحر «والتقاء الساكنين على غير حدة أجازاه الكوفيون» ومن الواضح أن تلك القراءات التي تثبت التقاء الساكنين إنما وردت عن طريق القراء موصولة بسندها، فإذا نظرنا إلى جانب النحاة البصريين فسرى اتهامات شنيعة لتلك القراءة منها:

- ١ - ما ساقه ابن منظور من أن الزجاج اتهم القراءة مرة بقوله «ليست بمضبوطة»^(٦) وأخرى بأنها «شاذة»^(٧) وقال عنها ثالثة بأنها رديئة^(٨)

٢ - وعقب أبو علي على من قرأ بها «بأن قوله لم يكن مستقيماً عند النحويين، لأنه جمع بين ساكنين، الأول منهما ليس بـ «دالين»^(٩)

(٢) سورة النساء آية ٥٨

(٤) سورة يس آية ٤٩

(٦) اللسان ١٦ - ٦٧

(٨) البحر المحيط ٢ - ٣٢٤

(١) سورة يونس آية ٣٥

(٣) سورة البقرة ٢٧١

(٥) سورة النساء آية ١٥٤

(٧) اللسان ٢٠ - ٢٣٠

(٩) ابراز المعاني ٢٦٢ .

٣ - كما وصف محمد بن يزيد أجدمؤيديها بقوله « وهو من عجيب اختباراتِه » وجمع هؤلاء الطاعنين فيها من نحويي البصرة ، أما الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فقد أيدها وهو كوفي ، كما أيدها الفراء ، ومنهم الداني بقوله « إن الإخفاء أقيس . والإسكان أثر »^(١)

ولما أثرت لهجة النبي صلى الله عليه وسلم وقريش التقاء الساكنين لأن التقاءهما دليل على الأداء الكامل وإعطاء الصوت حقه دون أن يطغى عليه مجاوره بالحذف أو التأثير وتلك صفة من صفات الخضر الممثلين في قريش . والحق أن تتبع كتب القراءات توقفنا على كثير من القراءات القرآنية التي تمثل لهجات عربية تلك التي تجهل لها البصريون وغيرهم من النحاة ، ووقفوا منها موقف المعارضة لأنها خالفت أصولهم وقواعدهم ، فحاولوا تأويلها أو رفضها ، ولهذا كان استقراؤهم ناقصا حين اعتمدوا في الأخذ عن القبائل المشهورة فقط ، واصطدمت بقراءات القرآن تلك التي تمثل لهجات عربية مشهورة ومغمورة ، وموقف النحاة هذا الموقف من القراءات وهي تستند على ما بين اللهجات من خلاف ، وانحراف عن المنهج السليم ، لأنهم ضيعوا علينا كثير من الدراسات في الجوانب اللغوية ، وحججروا واسعا وضيقوا ، وماذا عليهم

لو جعلوا قواعدهم مرنة تتقبل المأثور المروى من القراءات أو عدلوها واتخذوا شواهد لها من القراءات على أن إجماع النحاة ليس حجة مع مخالفة القراء لهم ، لأن من القراء جماعة من أكابر النحويين ، ثم ولو قدر أن القراء ليس فيهم نحوي ، فإنهم ناقلون لهذه اللغة وهم مشاركون للنحويين في نقل اللغة ، فلا يكون إجماع النحويين حجة دونهم ، والقراء أولى ، لأن القراءة متواترة ومأثورة النحويون آحاد .

(د) تميل القبائل الحضرية إلى تخفيف النون في الصيغ الآتية :

- ١ - اللذان ٢ - الذين ٣ - هذان ٤ - هاتان

فحركة النون حقيقة على لهجة قريش والحجاز^(٢) على حين تميل بعض القبائل البدوية إلى تشديد هذه النون ، وقد وردت قراءات على الصيغتين : التخفيف والتشديد فمنها :

- ١ - قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما »^(٣)
- ٢ - وقوله جل شأنه : « هذان خصمان »^(٤)
- ٣ - وقول عز وجل : « فذانك برهانان من ربك »^(٥)
- ٤ - وقوله سبحانه وتعالى : « إحدى ابنتي هاتين »^(٦)

(١) الإنحاف ١٩٦ ، النشر ٢ - ٢٥٣ .

(٢) ارتشاف الضرب لأبي حيان ١ - ١٣٦ مصور بدار الكتب رقم (٥٦١٥٦)

(٤) سورة الحج آية ١٩

(٦) سورة القصص آية ٢٧

(٣) سورة النساء آية ١٦

(٥) سورة القصص آية ٣٢ .

٥- وقوله عز شأنه «ربنا أرنا اللذين أضلانا»^(١)
فابن كثير قرأ بتشديد النون فيها كماها^(٢)
وقرأ باقي السبعة بتخفيفها^(٣) ولقد حدد صاحب
التصريح القبائل التي تميل إلى تشديد النون ،
وهي : تميم وقيس وهما من القبائل الضاربة
في البداوة .

ولكن البصريين^(٤) كما روى عنهم
أبو حيان^(٥) لا يجيزون التشديد في حالي
النصب والجر . ولكن ورود هذا التشديد
في القراءات القرآنية حجة عليهم . ويمكن
أن يحتاج لكلتا اللهجتين ، بأن من شدد فكأنه
جعل التشديد عوضاً عن الياء المحذوفة في
(الذي) إذ كان مقتضى القياس : اللذان
والتيان ، كما تقول : القاضيان ، ويمكن
أن يكون هذا التشديد تأكيداً للفرق بين
تثنية المبني والمعرب . وهو ما رآه صاحب
التصريح . وأما من خفف فمحمته أن العرب
قد تحذف طلباً للتخفيف من غير تعريض

(هـ) من الثابت في العربية أن الحركات
والسكنات يتعاقبان على الصيغة ويتقاصفان
عليها فيؤلفان نطاً منسجماً يتوأكب مع
المعاني الوظيفية للكلمة . فقد كثر عن العرب
مثلاً في مجيء المصدر على فعل ساكن العين ،

واسم المفعول منه على فعل مفتوحها :
كالنفض والنفض والحبط والحبط : (٦)
وتلك لعمري شفافية من العربية في لحظ
هذه الظلال الدقيقة بين السكون والفتح .
ولهذا كثر التفريع في (فعل) بكسر العين ،
وضمها . أما صيغة (فعل) بفتح الفاء
والعين فلا تفريع فيها عند النحاة . لأن
الفتح ضعيف فلا داعي للخروج عنه :
يقول سيبويه^(٧) «وأما ماتوالت فيه الفتحان
فإنهم لا يسكنون منه ، فلا يقولون في جمل
(بفتح الميم) جمل (بسكونها) » .

وفي ركاب سيبويه يسير السيرا في (٨)
وابن جنى في محتسبه حيث يقول معلقاً على
قراءة أبي السمال وأبي المتوكل وأبي الجوزاء
(حتى يابج الحمل)^(٩) : وأما الحمل
بالسكون فبعيد أن يكون مخففاً من المفتوح
لخفة الفتحة .

وأرى أن كلا من سيبويه ومن تبعه
في مذهبه قد جانبهم الصواب لورود ذلك
في القرآن المعجز . ومن ذلك :

١- قراءة جمع من القراء « حتى يابج
الحمل » بسكون الميم ، وذلك تخفيف من الفتح

(٢) اتخاف فضلاء البشر : ١٨٧

(٤) شرح التصريح ١ - ١٣٢

(١) سورة فصلت آية ٢٩

(٣) البحر المحيط ٧ - ١١٨ !

(٥) البحر ٧ - ٩٥٩

(٦) المحتسب لابن جنى ٢ - ٦٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : تحقيق الأستاذ على النجدي ، والدكتور

عبد الفتاح شلبي .

(٨) في شرحه على سيبويه ٥ - ٤١٦

(٧) الكتاب ٢ - ٢٥٨ ، ٢ - ٢٨١

(٩) سورة الأعراف ٤٠ وانظر المحتسب في نفس السورة والآية .

٢ - وقراءة أبي عمرو بن العلاء التميمي
أحد القراء السبعة «ويدعوننا رغبا ورهبا»^(١)
بالإسكان .

٣ - كما خففت الجماعة المفتوح
في (كانتا رتقا)^(٢) .

٤ - ومن تخفيف المفتوح ما في البديع
لابن خالوية : «ومن يقتل مؤمنا متعمدا»^(٣)
ساكنة التاء وقد حكم النحاة على تلك
القراءة بأنها في غاية الشذوذ والوهن .
٥ - وقراءة أبي عمرو «في قلوبهم مرض»^(٤)
ساكنة الراء .

٦ - وقراءة ابن محيصن (أمنة نعاسا)^(٥)
ساكنة الميم .

ولأدري لم رمى النحاة هذه القراءات
الموثقة بالشذوذ والوهن ، إلا أن تكون قد
خالفت قواعدهم التي حكموها في حقل
العربية حتى جعلوه ضيقا حرجا ، على الرغم
من أنها تمثل لهجات قبائل : تميم وبكر
ابن وائل ، وقبائل ربيعة وأكثر قبائل
أسد ، وعامة قبائل قيس المتاخمة لتميم ،
وذلك لأنهم يميلون جميعا إلى السرعة

في النطق حيث يحذفون الحركات وفي ذلك
تيسير واقتصاد في الجهد العضلي . وذلك
ما يهدف إليه الأعراب والبداة الحفافة^(٦) .

(و) الحركة الإعرابية بين النحاة
والقراء .

(أ) يرى بعض النحاة - جواز حذفها
مطلقا - وعلى هذا ابن مالك .

(ب) ويرى كثير منهم عدم حذفها
مطلقا في الشعر ، ومن هؤلاء المبرد وأضرابه .

(ج) جواز حذفها في الشعر ، ومنع
هذا الحذف في الاختيار ، وهذا رأى
جمهور النحاة^(٧) .

أما القراء فقد روى عنهم حذف الحركة
الإعرابية .

أولا : في الفعل المضارع :
في قوله تعالى «ينصركم»^(٨) و«يأمركم»
و«يأمرهم» و«تأمرهم» و«يشعركم»
و«ويعلمهم» . فقد أسكن
أبو عمرو بن العلاء في هذه المواضع
كلها .^(٩)

(٢) الأنبياء ٣٠

(١) سورة الأنبياء آية ٩٠

(٣) سورة النساء آية ٩٢

(٤) سورة البقرة ١٠ وانظر المحاسب ١ - ٥٣

(٥) سورة آل عمران ١٥٤ والمحاسب ١ - ٢٧٣ .

(٦) انظر مقالنا في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة جزء ٢٩ .

(٧) حاشية عبادة على الشذوذ ٢ - ٣١

(٨) في آل عمران والملك .

(٩) إبراز المعاني ٢٣١

ثانيا : في الأسماء : يدل لذلك قراءة مسلمة بن محارب « وبعولتهن أحق بردهن^(١) بسكون التاء . وقراءة أبي عمرو « فتوبوا إلى بارئكم » بسكون الحمزة^(٢) . « ورسلنا لديهم » بضياح حركة الإعراب^(٣)

وقراءة حمزة « استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يخيق المكر السيئ إلا بأهله^(٤) » بإسكان (السيئ الأولى) المجردة . ولكن المؤسف حقا أن نرى موقف الكثير من النحاة، حيث أنكروا الإسكان .

(أ) فسيبويه والمبرد والسيرافي والفارسي وابن جني والزجاج ينكرون الإسكان فيحمل سيبويه ظاهرة الإسكان في قراءة أبي عمرو على الاختلاس ، والمبرد يسم قراءة أبي عمرو باللحن^(٥) وابن جني حين نكر الظاهرة يشنع على القراء فيقول^(٦)

ولم يؤت القوم (يقصد القراء) في ذلك من ضعف أمانة . ولكن أوتوا من ضعف دراية « والسيرافي يذهب مذهب سيبويه ويسم تلك الظاهرة بالضرورة .^(٧)

ولا أدري كيف يكون حذف الحركة الإعرابية ضرورة مع ورود القرآن به

ثالثا : أنماط أخرى من حذف الحركة منها :

(أ) تسكين الياء المنصوبة في الآخر في قراءة طلحة بن سليمان « أن يحيي الموتى^(٨) » ساكنة^(٩)

(ب) وقراءة « ثاني اثنين »^(١٠)

(ج) وقراءة السلمي^(١١) « ألم تر أن الله » وقراءة أبي عبد الرحمن : « ألم تر كيف^(١٢) » (د) وقراءة « أو يعفو الذي بيده^(١٣) » بالسكون^(١٤) .

(١) سورة البقرة ٢٢٨ وانظر النشر ٢ - ٢١٤

(٢) المحتسب ١ - ١١٤ مخطوط بالتيهومية .

(٣) البحر ٢ - ١٨٨ .

(٥) البحر ٢٠٦

(٧) شرح السيرافي ١ - ٣٢ مخطوط برقم ١٣٧ دار الكتب .

(٧) سورة القيامة ٥٠

(٨) المحتسب ٢ - ٣٤٢ ط المجلس الأعلى للشتون الإسلامية .

(٩) سورة التوبة آية ٤٠

(١٠) سورة إبراهيم آية ١٥ والمحتسب ١ - ٣٦٠ ط المجلس الأعلى

(١١) سورة انجيل آية ١ وانظر المحتسب ٢ - ٣٧٣ ط المجلس الأعلى .

(١٢) سورة البقرة آية ٣٣٧

(١٤) الجمع ١ - ٥٣

(٤) سورة فاطر آية ١٤٣

(٦) الخصائص ١ - ٧٥ ط الهلال .

رابعاً : حذف الحركة الإعرابية في
الشعر ذلك كثير :

(أ) ما جاء في شرح السيراني من قول
الأقيشر الأسدي :

رحل وفي رجلك ما فيهما
وقد بدا هتلك من المتر
بسكون النون . (١)

(ب) وما أنشده أبو علي لحرير :

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم
ونهر تبرى فما تعرفكم العرب (٢)

وهناك روايات أخرى في الشعر كثيرة
حذفت فيها الحركة الإعرابية (٣) ، ولكن
النحاة عز عليهم ضياع الحركة الإعرابية
في هذه الشواهد وغيرها فرووا لها روايات
أخرى لإسكان فيها حتى تسلم لهم قواعدهم
ومقاييسهم ، وحتى لا يروا ذهاب حركة
الإعراب لغير ما سبب .

وظاهرة الإسكان التي أنكرها النحاة
وأيدوها القرآن والنثر والشعر على السواء
هي لهجات لقبائل عربية : كتميم ، وأسد
وبعض نجد ، وبكر بن وائل وبعض
قيس . (٤)

أما قبائل الحجاز فكانت تحافظ على حركة
الإعراب (٥) . ويظهر أن ظاهرة الإسكان
بدأت تنازل الحركة الإعرابية ، وتستولي
على أمكنتها ، وتزحف على أراضيها ،
وتسيطر على بقاعها .

ومما يؤيد ذلك ما قرأ به محمد ابن
عبد الرحمن بن محيىصن ، وهو من قراء
مكة : بإسكان لام الفعل في كل من هذه
الأفعال وغيرها نحو « يعلمهم ونحشرهم »
وتفسير هذا أن ظاهرة الإسكان زحفت
من تميم وقبائلها في شرق الجزيرة حتى
اقتحمت دوائر الحجاز في غربها .

والحق أن حركة الإعراب ضاعت في
ظواهر كثيرة من اللغة :
ضاعت في الوقف ، كما ضاعت في
الإدغام طلباً للتيسير والخفة .

فذهب الحركة الإعرابية لا يخالف
العربية — لاسيما قد أيدتها قراءات قرآنية
موثقة ، والقراء متبعون لا مبتدعون . وإذا
كان كذلك — أصبحت القراءة حجة
على النحاة والطعن على تلك القراءات
مردود ، ورمى القراء بالغفلة والوهن
وعدم الضبط ظلم وحيف .

(١) شرح السيراني ١ - ٢٦٧ مخطوط - تيمور .

(٢) شرح السيراني ١ - ٢٦٨ غ الخصاص ٢ - ٣٤٠

(٣) اللهجات العربية لصاحب المقال ٦٣٨ .

(٤) انظر الإتحاف ١٣٦ ، وإبراز المادى ٢٣٩ ، النثر ٢ - ٢١٢ ، البحر ١ - ٢٠٦ .

(٥) المحتسب ١ - ١١٤ مخطوط .

ثم إن الحركة الإعرابية التي عز على النحاة ضياعها في بعض القسرات والشواهد ليست هي القرينة الوحيدة الدلالة على المعنى فهي واحدة من القرائن التي تتظاهر لكشف اللبس عن المعنى ، واطراح إحدى هذه القرائن - والعلامة الإعرابية واحدة منها - غير محذور ولا منكر مادام لن يؤدي إلى ليس أو غموض .^(١)

على أن النحاة ليسوا بأوثق أمانة ، وأول عهدا ، وأرعى ذمة ، واطيب نفسا من القراء ، فضلا عن أن تخطيط النحاة للقراء في هذه الظاهرة مظهر من مظاهر المعيارية المرفوضة ، واتجاه بعيد عن الصواب والحادثة لأنهم لم يلتزموا بالأصل العام الذي قرروه لأنفسهم من الاحتجاج بالقرآن وقراءاته

(ز) - روى أبو عبيدة عن يونس ان :
أهل مكة يخالفون غيرهم من العرب فيهمزون النبي عليه السلام والبربة والذرية^(٢) وينقل صاحب اللسان^(٣) عن سيبويه أنه قال : والهمز في النبي لغة رديئة ، والنبي قد يكون أصله من النبأ - بمعنى أنه أنبأ عن الله فأصله على هذا الهمز ، وقد يكون أصله من النبوة والنباوة ، وهي الارتفاع عن الأرض فكأنه أشرف على سائر الخلق ، فأصله على هذا غير الهمز -

والمعروف ان بيئة الحجاز تنفر من الهمز في لهجاتها ، والشذوذ لهجة مكة حين نطقوا بالهمز فيما سبق ، لكن أن يعلل بأن اللهجات ليس من شأنها أن تلزم حالة واحدة كشأن القوانين الطبيعية في الكون ، وعلى كل فصنيع أهل مكة في في الكلمات التي همزت ، ومخالفتهم للعرب جميعا حيث يسهلون ذلك تدعونا إلى أن منطقة مكة في هذه الألفاظ أشبه بالجزيرة اللغوية Speech Island لأن خصائصها في هذا متميزة بخالف ما يشيع عند العرب :

ومما هو جدير بالذكر ما روى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا نبي الله - ﷺ بالهمز فقال له : لا تنبر باسمي . أي لا همز^(٤) . ومثله ما جاء في الحديث عن أبي ذر الغفاري وهو ما أخرجه الحاكم المستدرک : أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ، فقال لست نبي ، ولكن نبي الله وسند هذا الحديث ضعيف ، ومما يقوى ضعفه ما جاء في تفسير القرطبي ١-٤٣١ أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أنشد :
يا خاتم النبلاء . إنك مرسل
بالحق كل هدى السبيل هداكا
بالهمز : "جمع نبي" - ولم يعترض على هذا

(١) الخصائص ١ - ٣٣٤ وما بعدها ، وانظر الضرورة الشعرية في النحو العربي محمد حماسة . مخطوط مكتبة دار العلوم ورقة ٤٠٣ .

(٢) إصلاح المطبوع ١٥٩ ، وانظر اللسان : ١ - ٢٢ والنهاية لابن الأثير ٤ - ١٢٠ .

(٣) ١ - ١٥٧ . (٤) اللسان ٧ - ٤٠ .

واری انه من المحال أن يكلف النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً بأن ينتقل من لهجته الى لهجة أخرى لما ذلك من العنف والمشقة - وهو بالموثمن روؤف رحيم :

وقد يكون الرسول صلى الله عليه وسلم إنأكره (النبيء) بالهمزة ، لأنه قدقديتوهم أنه من (نبأ من أرض الى أرض) أى خرج منها ، فقد يحمله بعض من يضمم السوء على خروجه من مكة الى المدينة على غير وجه التكریم

ويهمنا هنا أن نناقش سيبويه - وهو رائد النحاة المتقدمين في قوله عن (النبيء) بالهمز - « وذلك قليل ردىء » ^(١) مع أن ابن سيده في المخصص ^(٢) ينقل عن سيبويه قوله « وليس أحد من العرب إلا وهو يقول : « تنبأ مسيلمة » وإذا كان سيبويه يرى بأن أصلها الهمز فأم استردأها ؟

ويمكن الدفاع عن سيبويه بأنه استردأها بالهمز ، لشذوذه عن الاستعمال ، وإن كان مطردا في القياس ، فقلة استعمالها بالهمز هو الذى جعل سيبويه يقول برداءتها.

ولكن على الرغم من هذا الدفاع عن سيبويه ومن جاء بعده من النحاة فما زالت التهمة متمسكة بأثوابه ، لأنه عرض بقراءة نافع ، ونافع أحد القراء السبعة وقد حقق ذلك في قراءته ، فقرأ (النبيء) بالهمز في القرآن ، كما قرأ هو وابن ذكوان « أولئك هم خير البرية » بالهمز. ^(٣)

وما كان لسيبويه أن يحكم عليها بالرداءة لأن أئمة القراء لا تعمل في شئ من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في النقل والرواية - إذا ثبت عنهم لم يردوها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها : ^(٤)

فاذا أضفنا إلى ذلك أن النبيء بالهمز لهجة عربية مكية ، وأنها قراءة نافع ^(٥) ابن أبى نعيم الذى يصفه ابن الجزرى بأنه : أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح ، كما قرأ على سبعين من التابعين . وفيه يقول أنس ابن مالك :

قراءة أهل المدينة سنة ، قيل له قراءة نافع ؟ قال : نعم : ويصفه قالون : بأنه

(١) الكتاب سيبويه ٢ - ١٧٠

(٢) سفر ١٤ - ٧٥

(٣) الإتحاف ٤٤٢

(٤) منجد المقرئين ومرشد الطالبين ، للإمام شمس الدين محمد بن الجزرى ، ٦٥ نشرة مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ

(٥) غاية النهاية ٢ - ٢٣٠ فما بعدها .

من أظهر الناس مخلقا ، ومن أحسن الناس الناس قراءة وكان زاهدا جوادا صلى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ستين سنة.

وحسبك بعد هذا الثناء العاطر ، والعطاء المتجدد من شيخ القراء أنه لما حضرته الوفاة قال له أبنائه : أوصنا . قال : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين .

ولهذا كله كانت التهمة محيطة بالنحاة وعلى رأسهم سيدييه حيث استردأ قراءة متواترة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلماء النحو بعامة مولعون بتخطئة هذا القارئ الثابت : نافع بن أبي نعيم . وما دمنا في قضية (الهمز) وبطلانها : نافع القارئ وسيدييه النحوي فاليلك ، وذجا من أحكامهم ومقاييسهم في قضايا الهمز - التي إن دلت فإنما تدل على مدى صلفهم وغطرستهم .

قال أبو عثمان المازني : « فأما قراءة من قرأ من أهل المدينة (معائش) ^(١) بالهمز فهي خطأ ، فلا يلتفت إليها ، وإنما أخذت عن نافع بن أبي نعيم ، ولم يكن يدرى ما العربية ، وله أحرف يقرأها لنا نحوا من هذا

وفي كتاب ^(٢) ابن مجاهد أن خارجة ابن مصعب هو الذي روى القراءة السابقة ^(٣) عن

نافع ، ويحكم أبو بكر بن مجاهد في كتابه السابق على القراءة : بالغلط

أما ابن جني فيسير في ركاب المازني فيقول : « وإنما كان همزها خطأ عنده ، لأنها لا تخلو من أن تكون جمع (معاش) أو معيشة أو معيش فقد قال رؤبه :

(إليك أشكو شدة المعيش)

يريد (المعاش) وكل واحد من هذه فعينه متحركة في الأصل ، فأصل : معاش : معيش ، وأصل معيشة : معيشة أو معيشة على مذهب الخليل :

وأصل معيش : معيش مكسور العين ليس غير ، ليس في الاتحاد اسم على مفعول بضم العين :

ثم قال : وإذا كان الأمر كذلك فحق : معاش ، معيش ومعيشة ، ألا تهمز في الجمع ، لأنه قد كانت عينه متحركة في الأصل ، فإذا احتاج إلى حركتها في الجمع حركتها ولم يقلبها واحتملت الحركة ، لأنها قوية وهي من الأصل ، وقد كانت متحركة في الواحد ، وإنما يهمز في الجمع حروف المد واللين التي لاحظ لها في الحركة في الواحد نحو ألف « رسالة » و « ياء » : « صحيفة » و « واو » : « عبوز » ، إذا قلت : رسائل ، وصحائف ، وعجائز ^(٤)

(١) سورة الأعراف آية ١٠

(٢) المنصف نرح أبي الفتح عثمان بن جني لكتاب : التصريف لأبي عثمان المازني النحوي البصري ١ - ٣٠٧ فا

(٣) السبعة في القراءات ط دار المعارف لابن مجاهد تحقيق د . شوقي ضيف ٢٧٨ . بعدها .

(٤) المنصف ١ - ٣٠٨ فا بعدها .

ويسير المبرد مع أستاذه المازني فيقول
« فأما قراءة من قرأ (معائش) فهمز فانه
غلط ، وإنما هذه القراءة منسوبة إلى نافع
ابن أبي نعيم ولم يكن له علم بالعربية وله في
القرآن حروف قد وقف عليها »^(١)

وابن خالويه يقول : من همز هذه الياء
فقد لحن ، وقد روى خارجة عن نافع همزه
وهو غلط ^(٢)

ويقول عنها الزجاج « جميع نحاة البصرة
تزعّم أن همزها خطأ ، ولا ينبغي التعويل على
هذه القراءة » ^(٣)

ولم يرو نافع وحده هذه القراءة فقد
رويت عن الأعرج ، وزيد بن علي ،
والأعمش وابن عامر ، وكلهم ثقات : ابن
عامر — وهو عربي صراح وقد أخذ القرآن
عن عثمان قبل ظهور اللحن ، والأعرج :
وهو من كبار قراء التابعين ، وزيد بن علي :
وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذي قل أن

يدانيه في ذلك أحد ، والأعمش : وهو من
الضبط والإتقان والحفظ والثقة ، كان ،
ونافع : وهو قد قرأ على سبعين من
التابعين وهم من الفصاحة والضبط والثقة
بالحل الذي لا يجهل يقول أبو حيان « فوجب »^(٤)
قبول ما نقلوه إلينا ، ولا مبالة بخالفة نحاة
البصرة في مثل هذا »

ومن الإنصاف أن نشير إلى موقف نحوي
كوفي تخرج من أن يدلي بدلوه مع النحويين
فيقول « فرمما همزت العرب هذا وشبهه ،
يتوهمون أنها فعيلة لشبهها بوزنها في اللفظ
وعدة الحروف وقد همزت العرب
(المصائب) وواحدتها مصيبه ، شبت
بفعيلة لكثرتها في الكلام »^(٥). فالقراءة السابقة
وإن كانت شاذة إلا أن لها وجهها في العربية ،
ونقلت عن طبقة بعد طبقة من القراء
الفصحاء — وهم في الضبط والتحرى والأمانة
بالمكان الذي لا يجارى :

أحمد علم الدين الجندى

(١) المقتضب للمبرد ١ - ١١٢ من المقدمة تحقيق الأستاذ عبد الخالق عزيمة .

(٢) إعراب ثنائين سورة من القرآن الكريم ص ٢٩ لابن خالويه ط دار الكتب المصرية .

(٣) البحر ٤ - ٢٧١

(٤) البحر ٤ - ٢٧١

(٥) معاني القرآن للقراء ١ - ٣٧٣ .